Al-Adab Journal Issue. No (151) Supplement (December) 2024

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

Mythological Narratives in American Cinema and Preparation for the Post-Human World: A Prospective Study from a Linguistic Anthropological Perspective

Dr . Jawad Kadhum Al-Timimi
Researcher and academic from Iraq
Scientific title: Assistant Professor
College of Imam Al-Kadhum (PBOH) For Islamic Sciences-Arabic department
Email: jk.tamim@yahoo.com

Copyright (c) 2024 (**Jawad Kadhum Al-Timimi (Ph.D.)**

DOI: https://doi.org/10.31973/avyt8580

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Abstract:

Western civilization, led by America and its Anglo-Saxon Protestant cultural structures, is rapidly progressing towards control and possession through military, political, and economic superiority. However, the goal of American civilization is to reshape biological existence, transforming humans into intelligent machines and a combination of human and intelligent machines. This dangerous goal is often ignored by the world's population.

The American political establishment does not prioritize this goal, but shadow institutions, scientific, cultural, and informal studies have been working tirelessly for decades to achieve superior ability to transfer humanity through artificial selection, fulfilling Nietzsche's dream of reaching the supreme human.

America's shadow foundations are investing in Protestant anthropological linguistics, genetic engineering, and artificial intelligence to reshape human awareness of the world and its future consequences. From a linguistic anthropological standpoint, the study investigates the function of mythical stories in American film and how they prepare audiences for the post-human world. This study aims to uncover the linguistic and anthropological aspects of the anticipated structural disaster that is expected to impact the human race.

Keywords: anthropological linguistics, Hollywood myth, Protestants, social Darwinism

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

السرديّات الأسطوريّة في السينما الأمريكيّة والتحضير لعالم ما بعد الإنسان
دراسة استشرافيّة من منظور لسانيّ أنثروبولوجيّ

أ.م.د. جَواد كاظِم إبراهيم التَّميميّ
كليّة الإمام الكاظِم (عليه السلام) للعلوم الإسلاميّة الجامعة
قسم اللغة العربيّة/البريد الإلكترونيّ: jk.tamim@yahoo.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

في عالم تتصارع فيه الحضاراتُ الكبرى على قمة واحدة، لهرم واحد، تتقدم الحضارةُ الغربية، وفي الطليعة منها الأمريكيةُ ببناها الثقافية الأنجلوسكسونية البروتستانتية، بخطى حثيثة، نحو غلبة نهائية ترجوها في سباق السيطرة، والاستحواذ، ساعيةً لتحقيق ذلك بالتفوق العسكريّ، والسياسيّ، والاقتصاديّ، ومحاولة السيطرة المطلقة على منابع الطاقة في العالم. وفي خضم الأحداث المتسارعة التي تعصف بالجنس البشري، ونزاعاته المتكاثرة، ثمة هدف مرعب، وخطير من أهداف الحضارة الأمريكية، قد يبدو مذهلاً في مديات غرابته الفلسفية، والعلميّة على حد سواء، يتغافل عنه كثير من سكان العالم، يتجلى بإعادة تشكيل الوجود الحيويّ (البيولوجيّ) للإنسان، أو تحويل الإنسان إلى كائن حيوي آخر، أو مزيج غرائبي مصنوع من الآلات الذكية وما يتبقى من التشكيل العضوي البشري.

لا تُظهر المؤسسةُ السياسية الأمريكية الرسمية العنايةَ بهذا الهدف، ولا تدّعي لنفسها أيةَ آصرة به، لكن (مؤسسات الظل)؛ العلمية، والثقافية، غير الرسمية، تعمل بإصرار منقطع النظير على العناية بشأنه منذ عشرات السنين، طامحةً إلى بلوغ القدرة الفائقة التي تُمكِّنها من نقل البشرية بـ(الانتخاب الصناعي) من (مرحلة الإنسان) إلى (مرحلة ما بعد الإنسان)، كما نُقلت بـ(الانتخاب الطبيعيّ)، حسب المنظور الداروينيّ، من (مرحلة القردة العليا) إلى (مرحلة الإنسان)، وبذلك يتحقق الحلم النيتشوي في الوصول إلى (الإنسان الأسمى).

تستثمر (مؤسسات الظل) الأمريكية ثلاث أدوات فائقة القوة، والتأثير لإنجاز المهمة، وهي: الفلسفةُ اللسانية الأنثروبولوجية البروتستانتية، والهندسةُ الوراثية، والذكاءُ الصناعي. ومن بين منتجات هذه الثلاثية الخطيرة؛ تنبثق (السرديّات السينمائيّة الأسطوريّة الهوليوديّة)، بوصفها نشاطاً فنيًّا فاعلاً في طريقة إعادة تشكيل الوعي البشريّ بحقيقة هذا العالم كما تراها، ومآلاته المستقبليّة. هدف هذه الدراسة الكشف –بمنظور لسانيّ أنثروبولوجيّ استشرافيّ–عن هذه الكارثة البنيويّة المرتقب إحلالها بالجنس البشريّ.

كلمات مفتاحيّة: أُسطورة هوليوديّة، وبروتستانت، وداروينيّة اجتماعيّة، ولسانيّات أنثروبولوجيّة

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

أولاً: مقدمة:

إذا كانت القوة لا تحتمل الفراغ، كما هو مؤسس أرسطيًّا في الثقافات الغربية، فإن (صراع الحضارات) هو السجل الحقيقي لمجريات الأحداث في العالم، أمّا (حوار الحضارات) فما هو إلا خدعة ذرائعية (براغماتية) من عيار ثقيل، تُطلقها الحضارة المتفوّقة للحصول على قسط من الراحة، ولتحقيق الوصول إلى الهدف المتوخَّى بأقل الخسائر، وتطلقها الحضارات المتخلفة من أجل البقاء أطول مدة ممكنة على قيد التحقق، والحياة.

تتفوق الحضارة الأمريكية البروتستانتية في مجالات حياتية متكاثرة؛ علميّة، وانثروبولوجية، وتسعى سعياً حثيثاً نحو بسط سيطرتها الكاملة على كوكب الأرض في المرحلة التاريخية الراهنة، والمستقبلية، مستندة إلى قوتها التقنية، والاقتصادية، والعسكرية الهائلة. وعلى سبيل فرض نموذجها الثقافي، وتعزيز فرص التعجيل بتكريسِه أسلوبَ حياةٍ للبشرية عامة، تتسارع خطاها نحو إنجاز التفوق النهائي على سائر قوى العالم المتقدمة في ثلاثة حقول فكرية، وتقنية، خطيرة، وهي: (الأنثروبولوجيا اللسانية الفلسفية)[1]، و(الهندسة الوراثية)[2]، و(الذكاء الصناعي)[3]، مستثمرة ما تنجزه هذه (الثلاثية الخطيرة) من أدوات مكتنزة بالقوة المتزايدة، التي تغزو بها بلدان العالم كافة، في ساحات نشاطاته المتنوعة، ولعل من بين أبرز تلك الأدوات الفاعلة؛ أسلحتها (الباردة)، المتمثلة بصندوق النقد الدولي، والشبكة العالمية؛ (الأنترنت)، ووسائل الإعلام المتفوقة عدةً وعدداً، والعمل الدؤوب على نشر اللغة الإنكليزية، وتأسيس الجامعات الأمريكية الرصينة، في بلدان العالم المتخلّفة، وتنميط وسائل البحث العلمي بطريقة فذة، مُسهِمة في الاستيلاء العلني

---

(1) الأنثروبولوجيا الفلسفية: اتجاه فكري يعتمد على الإنسان، وسماته، لتحديد طرح القضايا الفلسفية كافة، وحلّها (حسيبة، ٢٠٠٩، ينظر: ١٠٤). ما يعني أنها مهتمة بدراسة البنى الثقافية، والاجتماعية التي تشكل التفاعل الإنساني بين الجماعات البشرية، وبينها وبين عالمها المحسوس. وكونها فلسفة إنسانية يعني أنها ليست مثالية، بل وجودية، وهذا ما يجعل من نصوصها المعرفية (الإبستيمولوجية) نصوصاً لسانية أنثروبولوجية بامتياز، فكلما تفلسف الإنسان بعيدا عن المثاليات النسقية اندكَّ كلامه في صميم الميدان اللساني الأنثروبولوجي. ومما أسهم في تسريع هذا التحوّل الاستثنائي نحو (فلسفة الإنسان) -بوصفه كائنا متحدثا بالعلامة اللسانية، والسيميائية- تحلّلُ (العقلانيّات الكبرى)، المفضي إلى قيام (المنعطف اللغوي) الذي يعني توجه الفلسفة نحو اللغة، بل صيرورة الفلسفة فلسفة لغوية (بغوره، ٢٠٠٥، ينظر:٧). إن تحلل (العقلانيات الكبرى) أسهم كذلك في قيام عصر الإنسان المتمرد على القيم السائدة، وهذا هو دافع بزوغ الوجودية، والفوضوية، والمدارس الفنية النافية للواقع الموضوعي كالدادائية، والسريالية، والأساطير السينمائية الهوليودية.

(2) الهندسة الوراثية: التلاعب بالمورثات بطريقة تسمح بإحداث تغيرات مسيطر عليها في صفات الكائنات الحية. (الفيصل، ١٩٩٩، ينظر: ٢٤).

(3) الذكاء الصناعي: تمكين أجهزة الحاسوب من تنفيذ المهامّ التي ينفذها العقل البشري (بودين، ٢٠٢٢، ينظر: ١١).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

على أغلى ثمار عقول علماء العالم[٤]. وبين هذا وذاك، في وضع عالمي متخم بالصراعات المتباينة، تتقدم المؤسسة السينمائية الهوليودية لتتصدر ميدان تغيير منظومات القيم الثقافية للجنس البشري، والتلاعب بمآلاته المستقبلية، بما تنتجه من نشاط سينمائي متدفق، تبعث به إلى المشاهد العالمي. ولعل من بين أشد إنتاجات المؤسسة الهوليودية خطورة على مستقبل البشرية؛ أفلام الخيال العلمي[٥]، مصطلح لساني أنثروبولوجي: (سلسلة السرديات الأسطورية)، التي برزت على مدى قرن من الزمن الحديث تقريباً، بوصفها نشاطاً فنيًّا إيديولوجيًّا خطيراً، وفاعلاً بطريقة مذهلة في عملية نشر (النموذج) الأمريكي، وبسط السيطرة الثقافية النهائية على العالم.

تحاول هذه الدراسة التأصيل لهذه القضية الكونية الخطيرة –من منظور لسانيّ أنثروبوولوجيّ[٦]، ذي توجه استشرافي كاشف[٧]– ببحثها في (نصوص فلسفية أنثروبولوجية)

---

[٤] من ذلك مثلاً مجلات (سكوباس)، التي تمثل أذكى عملية تجسس علمي في التاريخ، فالباحثون؛ (الضحايا) ينشرون ثمرات عقولهم علناً، ويدفعون الأثمان الباهظة لقاء ذلك، والمستفيد العلمي الأول هو المؤسسات العلمية المعلنة، والمخفية في أمريكا، وملحقاتها، التي تقتنص أي فكرة فريدة للانتفاع بها بشكل أفضل بكثير من أي بلد آخر، بسبب امتلاكها بنيات تحتية علمية فائقة الجودة، فإذا حصلت على (فكرة مثمرة) واحدة في بحث واحد، من بين آلاف البحوث المنشورة المدفوعة الثمن، فهذا وحده مكسب كافٍ كبير، يتحقق من دون الحاجة إلى استقطاب علماء العالم. وبذلك يحصل الاستغناء عن (هجرة الأدمغة) إلى أمريكا إلى حد كبير، ما يعني تخفيف النفقات كثيرا. إن الضحايا –في هذه اللعبة الذكية- يدفعون الأموال وهم في غاية السرور، لأنهم نشروا بحوثهم في مجلات (سكوباس)، لكن الحقيقة المُرة عدم حصولهم على أي شيء سوى (فرحة) النشر في مجلات ترضى عنها المؤسسات الغربية، ولا تحصل بلدانهم على شيء سوى أوهام (فرحة) الدخول في التصنيف العالمي؛ أو (الأمريكي) بالمعنى الصحيح، وهي (فرحة) لا يترتب عليها أيّ شيء ذي قيمة واقعية في حياة هذه البلدان. ولابد من الإشارة إلى خطورة العناية بهذا النوع من النشر، فثمة هدف تحققه مجلات سكوباس-فضلاً عن الجنبة العلمية والتجارية-وهو إضعاف ارتباط الباحثين بلغاتهم الوطنية مقابل العناية الفائقة باللغة الإنكليزية، ما يعني-بمرور بضعة أجيال-الحصول على مشاركة طوعية من (علماء العالم) في تسريع الانقراض العلمي للغاتهم الوطنية، والتعجيل بالموت الثقافي لبلدانهم، بحكم كون (اللغة) الممثل الأقوى في تشكيل الهويات الوطنية، كما أن (أباطرة التكنولوجيا الأمريكان) سيحصلون -بسبب هذا النوع من النشر الممنهج على وفق المعايير الأمريكية-على قاعدة بيانات أكاديمية مؤرشفة، تتضمن أصدق معرفة بمستويات الوعي، والتفكير في البلدان المختلفة. النتيجة النهائية إسهام الباحثين الأكاديميين-بنوايا حسنة جدًّا- في تعجيل انتصار الحضارة الأمريكية على حضاراتهم، بل على سائر حضارات العالم.

[٥] ثمة تعريفات متعددة للخيال العلمي؛ فهو تارة مزيج من الرومانسية والعلم والتنبؤ، وتارة أخرى تخمين واقعي لأحداث مستقبلية، وتارة ثالثة نوع أدبي يعتمد على بديل متخيَّل لبيئة القارئ، وتارة رابعة نوع من الأدب القصصي العجائبي (سِيد، ٢٠١٦، ينظر:٧)، وفي جميع الحالات لا يخرج عن كونه نشاطاً لسانيًّا أنثروبولوجيًّا. و((إن هيمنة الولايات المتحدة على مجال الخيال العلمي قد أصبحت حقيقة بديهية)) (سِيد، ٢٠١٦: ٩).

[٦] اللسانيات الأنثروبولوجية هي ((دراسة الكلام واللغة في سياق الأنثروبولوجيا)) الأنثروبولوجيا الألسنية (دورانتي) ٢١. ويعد هذا العلم فرعاً من فروع اللسانيات البينية. واللغة -من منظور أنثروبولوجي- هي المنظومة الرمزية التي يمكنها استيعاب الرموز الأخرى، ويتأكد ذلك بعد تشريع بعض كبار الباحثين إدخال السيميائية في اللسانيات، فالسيميائية –بحسب رولاند بارت– جزء من اللسانيات (بارت، ١٩٨٧، ينظر: ٢٩). وعلى هذا يُعدُّ الفلم السينمائي نصًّا لسانيًّا قابلا للدراسة اللسانية الأنثروبولوجية، حتى ببعده السيميائي. ومن المباحث اللسانية الأنثروبولوجية الظواهر المشتركة بين الجماعات البشرية كافة كالثقافة، والهوية، والأسطورة، والقتل الرمزي، والسرديات الكبرى، والأنشطة السياسية، والفلسفة الأنثروبولوجية. يقول الأستاذ سعيد الغانمي: ((إذا كانت اللغة تنطوي ضمناً على قصد الإحالة إلى الخارج، والسيمياء هي العلم

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

لعدد مهم من المفكرين الغربيين، يمكن عدّها المتون الرئيسة الأكثر خطراً على العالم، في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، ليكون القصد من وراء ذلك كله بيان مَدَيات فعلها العميق في تشكيل موضوعات (السرديات الأسطورية) للسينما الأمريكية، والأهداف المعلنة، والمضمرة لمؤسسات الإنتاج، وبيان حقيقة آثارها الواقعية والافتراضية في شعوب الأرض الغافية غفوة بنيوية أنثروبولوجية متصلبة على حافات حركة سير التاريخ[٨]. إن عملاً معرفيًّا (إبستيمولوجيًّا) كهذا يستدعي في (الجزء النظري) من الدراسة بسط البحث عن الجذور اللسانية الفلسفية الأنثروبولوجية، المؤسسة لحقبة انتشار (الداروينية الاجتماعية)، بوصفها (حقل امتزاج الفكر البروتستانتي الوجودي بالهندسة الوراثية) الأكثر رغبة، بل شراهة في تغيير مستقبل البشرية، لنصل من وراء ذلك لمعرفة حقيقة التأسيس، أمّا في (الجزء التطبيقي) من الدراسة فسأكتفي بتحليل عينات محددة من المنتج الأسطوري السينمائي الهوليودي، بما يسمح به المكان، ولكن مع توخّي التنوع السردي الذي يتطابق ومضمونات مباحث التنظير.

ثانياً: البنى الثقافية الأمريكية وصراعات الاستحواذ على العالم:

تتقدم (البروتستانتية الأمريكية) بخطى متسارعة نحو ابتلاع ثقافات العالم، وإعادة صياغتها بطريقة تجعلها تنويعات ثقافية أمريكية بامتياز، آخذة بالحسبان الذرائعي الاحترام الظاهري لباقي شعوب العالم، بمنحِها (رشوة ثقافية) من قبيل العناية ببعض منتجاتها الأنثروبولوجية، الأمر الذي يجعل تلك الشعوب جَذْلى، فَرِحةً، لأن (السيد الأمريكي) منحها شيئاً من العناية، والاهتمام[٩]. إن فعلا ذرائعيًّا كهذا يصنع الشعور بالارتياح لدى كثير من (سكان الأدغال) المحيطة بـ(جنة شمال الأطلسي) الغربية، فالقوة العظمى المتحكمة بالعالم منّت عليهم–وعقلانيتها المتأنسنة، وبحكمتها البروتستناتية العادلة– بأن جعلتْ (كيفية إعداد طبقٍ على الطريقة الأفريقية)، أو (صنع شطيرة بائسة على الطريقة الآسيوية) موضع اهتمام

الذي يربط التكوين الداخلي للمغزى بالقصد المتعالي للإحالة، فإن وظيفة اللغة بكاملها ستكون مشروعاً فلسفيًّا للوجود في العالم)) (ريكور، ٢٠٠٦ب، ١٥). وتحاول اللسانيات الأنثروبولوجية الكشف عن التناظر بين البنية النصية والبنية الذهنية، ما يعني أنها معنيّة جدًّا بتجريد (البنية الثقافية) المنتجة للنصوص، ولهذا أدخلت النصوصَ التاريخية في مجال بحثها البيني. يقول د. عبد الله الغذامي: ((لا يكون التاريخ مجرد حقائق وأحداث بمقدار ما هو منظومة علاماتية ألسنية)) (الغذامي، ٢٠٠٥، ينظر: ٤٧).

[٧] استشراف المستقبل: استقراء التوجهات العامة في حياة البشرية، التي تؤثِّر بطريقة، أو بأخرى في مسارات الأفراد والمجتمعات (الهنداوي،الحموري، المعايطة، ٢٠١٧، ينظر:٢١).

[٨] من منظور جدلي هيغلي: نرى أن الأنثروبولوجيا الثقافية تمثل استنساخ نمط العيش بدون توقف، ويمثل التاريخ الصيرورة الدائبة في تشكيل المستجدات بدون توقف.

[٩] بعض الأوساط السياسية والثقافية والإعلامية تفخر إذا كانت محلَّ اهتمام من مسؤول أمريكي، بأي درجة كان. وفي برنامج استطلاعي في شوارع أمريكا، يسألُ صاحبُ قناةٍ عربيٌّ على منصة يوتيوب الشبابَ الأمريكان: ماذا تعرفون عن العرب؟ فكان الجواب: لا نعرف شيئاً. ثم حصل على إجابة من أحد الشباب، وهي: العرب يكتبون من اليمين إلى الشمال، وهم يتكلمون العربية. فقال صاحب القناة: هذه إجابة جيدة.

لها، ما يعني–وبتقبّل كامل للخديعة– أن الثقافة الأمريكية (العادلة) لا تفرق بين أبناء الجنس البشري. وبينما يتغنى (سكان الأدغال) بهذه المنّة وأمثالها، وبينما هم يحلمون بعبور (السور) نحو (الحديقة الأطلسية)، وقد يعبرون فعلاً، بينما يحصل ذلك، تتولى المؤسسات الثقافية الأمريكية، ومن بينها، وربما في الطليعة منها المؤسسةُ الهوليودية؛ أو (الغابةُ الأمريكية المقدسة)، في حقل فني (درامي) ثقافي أنثروبولوجي موازٍ، تنميط (الذوق العالمي) السينمائي بطريقة تعيد تشكيل وعي البشر بالدين، والطبيعة، ومنظومات القيم، وبنية الأسرة التقليدية، والشذوذ الجنسي، وحرية اختيار الإنسان في تحديد النوع الذي يريد أن يكونه، بعد أن ينمو، ويكبر، ويرافق ذلك –كما هي العادة–هدم متواصل للثقافات الطرفية المحلية في أرجاء العالم. لكن الكارثة الكوكبية –كما يبدو– لن تقف عند هذا الحد، فثمة هدف متوخى هو أشد خطورة من التلاعب بمنظومات القيم الثقافية، لكن جماعات كثيرة في هذا العالم ليست مهتمة به، بسبب الانشغال الدائم بالنزاعات الأزلية المعهودة في الذاكرة البشرية، أو – بصياغة أكثر دقة– هو (هدف) غير منضوٍ في عداد الكوارث المستقبلية لدى أعداد غفيرة من سكان الكوكب، وقد يعد نوعاً من الخيال العلمي، أو تطرفاً في التحليل اللساني الأنثروبولوجي، وهو إعداد شعوب العالم كافة لتقبّل ثقافة (مرحلة ما بعد الإنسان)؛ الهدف القادم للحضارة البروتستانتية الأمريكية، التي تستعين على نشر التثقيف به في أرجاء العالم بوسائل شتى، لعل في الطليعة منها؛ (المؤسسة الهوليودية)، ومنتجاتها السردية الأسطورية. ويختمر الآن الشروع بتلك المرحلة الكارثية، تحت السطح غير المرئي من أحداث العالم، منذراً بخطر (الإفناء) الذي قد لا يكون بعيداً جدًّا عن الأحداث المنظورة من المستقبل البشري.

كانت المؤسسة الهوليودية الأمريكية قد أطلقت منذ زمن بعيد المهمة الكونية (الخرافية)، بمنتجاتها السينمائية المتمحورة حول أبطال الخيال العلمي، والبشر المتحولين، والرجل الخارق؛ (سوبرمان)، والمرأة المعجزة؛ (ديانا)، وسائر الشخصيات السينمائية التي تمتلك قدرات فيزيائية هائلة، مستغلة حقيقة أن (السرديات القصصية)، ولا سيما الأسطورية منها، وسيلة (رجل الشارع) الفضلى لتقبل معضلات التفكير، وسبيله الأمثل تفكيك البنى الراسخة في الثقافات البشرية، والتحضير للبنى البديلة؛ النافية بالمعنى الهيغلي[١٠]؛ (الديالكتيكي) لكل ما هو راسخ في الضمير الإنساني، فراحت تنتج سردياتها السينمائية الهادفة لتسريع مهمة

[١٠] فريدريك هيغل: فيلسوف ألماني توفي في العام ١٨٣١. يرى أن مجرى التاريخ لا ينبسط انبساطا عشوائيًّا، فهو –على الرغم من التنافر الظاهري لما فيه من الأحداث- يعبر عن معنى، لأنه يحقق هدفاً في نهاية المطاف، كما أنه يسعى إلى التجلي التدريجي للفكرة الكونية. ويرى هيغل ألا وجود للواقع إلا في قلب الصيرورة، وعبرها، وأن التناقض هو المحرك للفكر والواقع (حسيبة، ٢٠٠٩، ينظر: ٦٦٧- ٦٦٩). وتجدر الإشارة إلى أن ترجمة الأعلام تقتصر على الأكثر تأثيراً في سيروة هذه الدراسة.

التقويض النفسي، والأنثروبولوجي لـ(حقبة الكائن البشري)؛ تلك السرديات التي تبشر– بجودتها الفنية العالية– بعالم يتحول فيه البشر المعاصرون؛ أو (أبناء القردة العليا) بحسب المنظور الداروينيّ، إلى شيء جديد مختلف تماماً عن المألوف الحيويّ، العضوي للإنسان، شيء عابر للطبيعة البشرية، ربما سيحظى بمصطلح علمي حيوي تطوري داروينيّ، من مثل (أبناء الإنسان)، أو (أحفاد القردة العليا).

ثالثاً: الفكر الأسطوري في مواجهة الوضعية المنطقية

الأسطورة –في الموروث الثقافيّ العربيّ والإسلاميّ–مفرد أساطير، والأساطير: الأباطيل (ابن منظور، ينظر: ٢٠٠٧، مادة (س، ط، ر)).؛ قال تعالى: ((وَقَالوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)) الفرقان/ ٥، ما يعني أن النصوص الأسطورية كلام مكذوب، أو نشاط لساني أنثروبولوجي، لا يمكن الوثوق به في تكريس، أو تحقيق الوعي البشري بالعالم، لانعدام التلاقي بينه وبين الأسس البدهية التي يقوم عليها العقل الإنساني العلمي المرتبط بقوانين السببيّة. وترى الثقافة الغربية المساوقة لعصر النهضة الأوروبية أن الأسطورة ما يروي تاريخاً مقدساً، أو حدثاً جرى في الزمن الخياليّ للبشرية؛ زمن (بدايات) وجود الإنسان الواعي في هذا العالم (إلياد، ١٩٩١، ينظر:١٠)[١١]؛ الوجود المتكرس في نصوص لسانية مُخْتَلَقة، بخيالٍ بدائيٍّ، شعائريّ جامح، غير ذي صلة وثيقة بالتفكير العقلي، ولا بالحقيقة المتأتية عن استعمال المنهج التجريبي؛ يقول مرسيا إلياد: ((إن التعارض بين الأسطورة واللوغوس (العقل) من جهة، وبينها وبين التاريخ من جهة

[١١] ويرى د. مصطفى حسيبة أن الأساطير قصص كبرى أنتجتها معظم الحضارات البشرية، لتقدم بها مفاهيمها الأساسية، ولتصوغ من ورائها رؤى لتتفسير الكون، والاجتماع الإنساني، وقد تكون الأساطير خيالية بدرجة كبيرة، ولكنها قد تستند لبعض الوقائع التاريخية (حسيبة، ٢٠٠٩، ينظر:٦٠). وتجدر الإشارة إلى أن للأسطورة تفسيرات وظيفية مختلفة، لكننا اخترنا منها -في هذه الدراسة-ما كان ذا أثر مباشر في قضية (السرديات الأسطورية الهوليودية)، بمعنى ما كان معنيًّا بكسر أسس المنهج التجريبي، وقوانين السببية المتحكمة في حدوث الأشياء. كما أن للأسطورة تأصيلات معرفية شتى، فهي-كما يرى كارين أرمسترونغ مثلا- نتاج قدرة البشر على توليد أفكار وتجارب غير قابلة للتفسير المنطقي. (أرمسترونغ، ٢٠٠٨، ينظر:٨) ويرى ماكس مولر أن الأسطورة شيء تنجزه الفاعلية اللغوية، ويعود سبب ذلك إلى وجود نقص أساسي في اللغة، وضعف خطير متجذر فيها، فالدلالات اللغوية غامضة في جوهرها، ويكمن -في هذا الغموض، وفي المشترك اللفظي-جميع القصص الأسطورية (كاسيرر، ٢٠٠٩، ينظر:٢٣) وماكس مولر مستشرق ولغوي ألماني، توفي في العام ١٩٠٠. ويعتقد مالينوفسكي بفكرة التفسير الذرائعي للأسطورة، ما يجعل منها نشاطا أنثروبولوجيًّا منتمياً إلى العالم الواقعي، بمعنى نفي ربط ظهورها بدافع البحث والمعرفة، والبواعث النفسية، فهي تنتمي -بحسب مالينوفسكي- إلى العالم الواقعي، وتهدف إلى تحقيق نهاية عملية نفعية (براغماتية)، لأنها تُرْوى لترسيخ عادات قبلية، أو لتدعيم سيطرة عشيرةٍ ما، أو أسرة ما، أو نظام اجتماعي، وما إلى ذلك، فهي -والحالة هذه-عملية نفعية في منشئها، وفي غايتها. (السواح، ١٩٩٦، ينظر: ١٥). وثمة مَنْ يرى أن الأسطورة ذات أثر فعّال في توصيل الأفكار المجردة، وتثبيت المعتقدات. (السواح، ٢٠٠١، ينظر: ٢٣). ويقول زكريا إبراهيم: ((من المؤكد أن (الأسطورة) قد مهدت للفلسفة، فكان لكل شعب من الشعوب خرافاته الحيوية التي كانت تشبع حاجته إلى الفهم وميله الى المعرفة)) (إبراهيم: ١٩).

أخرى، آلَ بالأسطورة إلى الدلالة على كلِّ ما ليس موجوداً حقًّا)) (إلياد، ١٩٩٥: ٦)، وما دام الأمر كذلك فليس ثمة تلاقٍ بين سيولة المعنى في النصوص الأسطورية، وثوابت التفكير العقلي؛ (اللوغوس)، على وفق معايير منهج البحث العلمي التجريبي. لكن الفكر الأسطوري ليس خالياً من منطقٍ ما، فثمة رؤيتان فاعلتان ينتهجهما في محاولته إدراك العالم، وهما: الرؤية التراجعية الماضوية، والرؤية التطلعية المستقبلية، ومن دون الأولى-بوصفها نشاطاً لتفسير الأحداث السالفة- يُحرم الفكر الأسطوري من الذاكرة. ومن دون الثانية-بوصفها نشاطاً لصناعة الأحداث القادمة- يُحرم الفكر الأسطوري من السعي إلى تحقيق أحلامه المستقبلية، أو الاضطلاع -كما يظن أصحابه-ببناء العالم (وورد، ١٩٩٩، ينظر: ١٠١). وبهذا المنحى الرؤيوي حصراً لا يكون الفكر الأسطوري وسيلة الإنسان الراتبة لإدراك الحقيقة فقط، بل هو أيضاً وسيلته المثلى المتاحة لإخضاع الموجودات في الطبيعة. لكن فلاسفة عصر النهضة الأوربية سعوا لتحطيم (المنتج الأسطوري) للثقافات البشرية التقليدية التي حكمت المسيرة الإنسانية عبر العصور، بتوخّيهم (المناهج التجريبية)، وتأكيد ارتكازهم عليها في محاولاتهم الحثيثة للبحث عن أسباب حدوث الأشياء، وتحولات الموجودات في الطبيعة، وكانت تلك (المناهج) سُبُل عصر النهضة الغربية اللاحبة لإدراك حقيقة وجود العالَم ببعديه الطبيعي، وما وراء الطبيعي[١٢]. وقد تطرّف فريق مهم منهم فَرَكَن إلى الوضعية المنطقية لمحاكمة (الغيب)، نازعاً القداسة عن الأديان، بقصد إقصائها عن ساحة الفكر البشري، وتفكيك الجنبة السحرية المتأصلة في ثقافات العالم.

إن تطور العقل الغربي الحديث وسعيه الدائب لانتهاج (الوضعية المنطقية)[١٣] وسيلةً للتفكير جعل الفلاسفة الوضعيين يسقطون بصرامةٍ منهجيةٍ (الشرعيةَ القضوية) عن جميع مشكلات العالم، غير الخاضعة للتجربة الحسية، بحكم كونها (أشباه قضايا) مستندة في وجودها إلى القيم البلاغية، والتكييف المجازي للكلام، والخطاب الشعري المناهض لقيام (المعرفة) على أساس الإمساك بالسبب المنتج، أو التعامل الحصري بقوانين السببية. وقد أفضى هذا التأسيس المعرفيّ (الإبستمولوجي) بالمنتج اللساني الأسطوري إلى أن يُحصر بمساحات متوهَمة من النفس البشرية، وهو (حصر) يتطابق ومُتَبَنَيات الثقافة العربية

---

[١٢] في بريطانيا مثلاً قام فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) بتلاوة إعلان الاستقلال الذي يحرر العلم من قيود الأسطورة (أرمسترونغ، ٢٠٠٨، ينظر: ١١٢).

[١٣] لهذه الفلسفة أثر مهم في البحث العلمي، ويطلق عليها التجريبية المنطقية، ومن ملامحها؛ منطقيًّا: (التركيز على المنهج العلمي، وتحليل اللغة، ووحدة العلم). وتجريبيًّا: (القول بأن المعرفة الواقعية تجريبية بالضرورة، وصدقها يعتمد على مبدأ التحقق) (د.مراد وهبة، ٢٠٠٧، ينظر: ٦٨٦).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

الإسلامية، التي تتوافق والفكر الغربي ضمن هذا الحدّ من حدود العقل، النافي للأسطورة، والمشكّل لوعيَ الإنسان المدرك للمستوى الطبيعي؛ (الفيزيقي)، من العالم، ما يعني أنَّ الأسطورةَ استيهام بشريٌّ مبنيّ على تأملات شعرية لتفسير كينونات الوجود المتنوعة، أو المتباينة.

رابعاً: الاستعادة الذرائعية للأسطورة

يلفت النظرَ المعرفي (الإبستمولوجي) في القرن العشرين، وما اتصل به حتى الآن من القرن الحادي والعشرين عودةُ (الفكر الأسطوري)[١٤] الغرائبية (الفنطازية)، وبإصرار يكاد يصل به إلى مستوى التصلُّب البنيوي غير القابل للتفكيك، بنشاط معاكس لحركة الفكر الغربي ذي النزعة التجريبية، وتتأكد هذه العودة –على قدر تعلق الأمر بهذه الدراسة–برعاية أمريكية سينمائية هوليودية فائقة، ساعية للإسهام في إحداث تغيير (فلسفي لساني أنثروبولوجي) هادف إلى إعداد العالم، أو تهيئته –بطريقة تبشيرية–لمرحلة اختفاء الجنس البشري، بوصفه –من منظور داروينيي– كائناً متطوراً عن (القردة العليا)، و اقتراب مجيء مرحلة (ما بعد الإنسان) التي يعمل –على تسريع وصولها– فريقٌ خطير من علماء العالم الغربي في مجال الهندسة الوراثية، وتقنيات الحاسوب، والذكاء الصناعي.

يقول المفكر داريوش شايغان: ((إذا كان الإنسان لا ينتصر على الأسطورة إلا بالتضحية بطبيعته والتعلق بأناه التي تنبثق منه عقلا مستنيراً، فإن الطبيعة تنتقم من الإنسان بأن تعيد تشكيل عقله في قالب أسطورة، وبأن تجعل من هذا العقل أداة في خدمة الغرائز والوسائل الخاصة لغائية مباطنة للعقل نفسه، أي باختصار بأن تخضعه لقوى الطبيعة اللاواعية)) (شايغان،(236 :2004 ، وما قاله داريوش شايغان يحكي –من وجهة نظره، وبصيغة فرضية احتمالية من جهته– عودةَ (الفكر الأسطوري)، أو (المنبوذ)، الذي نُفِيَ بتنامي المنظور الفلسفي الوضعي المنطقي للإنسان الغربي الذي صنع به (العقل المستنير) في عصر النهضة، من أجل الـ(أنا) الغربية الحداثية المنشودة، التي قضت على الفكر الغيبي (الميتافيزيقي)، الأمر الذي عزز سعي الأمم الغربية للاستقواء في الحيز الطبيعي من العالم. لكن المفكر داريوش شايغان –في مسألة التضحية بـ(الأنا)– يخطئ في إصابة الهدف المعرفي، عندما يتعلق الأمر بالحاضنة الحضارية الأمريكية المعاصرة، فقد عاد العقل الأمريكي في منتجه السينمائي ليكون –في مرحلة ما بعد الحداثة، أو الحداثة

[١٤] يستعمل الفيلسوف الألماني أرنست كاسيرر مصطلح (الفكر الأسطوري): ينظر (كاسيرر، ١٩٧٥: ١٧)، وفي كتابه هذا مباحث ترسّخ موضوعة وجود فكر أسطوري.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

السائلة[١٥]– راعياً للفكر الأسطوري؛ (المنبوذ)، والمنفي، ولكن بنسخة لا يخضع معها لقوى الطبيعة اللاواعية، بل بنسخة جديدة تعزز حضور الـ(أنا) الأمريكية الواعية في العالم الطبيعي، بحيث تستغل تلك الـ(أنا) الأمريكية –في مفارقة مذهلة– ما استثمره العقل التجريبي، الوضعي المنطقي من (خوارزميات برمجية)[١٦] فائقة استثماراً يضعها في خدمة صناعة الأساطير السردية الهوليودية، والسينما الأمريكية –كما هو معلوم ومألوف– تُفْرِط في استعمال تقنيات الحاسوب، ما يعني أن إعادة تشكيل عقل (الإنسان المعياري الأمريكي)، ذي النزوع الذرائعي المحموم، لا تمثل –هذه المرة–انتقام الطبيعة منه، بل تمثل–وبطريقة هوليودية فذة، فريدة من نوعها– دهاءَه، ومكرَه في إحكام سيطرته التامة على العالم، بوصفه إنساناً مستعلياً، وناقماً –في الوقت نفسه–على كينونته الحيوية (البيولوجية) المتوارثة، وساعياً للتحول إلى (مرحلة ما بعد الإنسان)، وهادفاً–قبل هذا كله– لإعادة تشكيل الموجودات، وتأسيس منظومات ثقافية، وقيمية جديدة، وبديلة عمّا عهدته البشرية.

إنَّ (الفكر الأسطوريّ) يفرض –بنسخته الأمريكية الهوليودية المعاصرة– حضوراً متنامياً في ساحة المثاقفة البشريّة[١٧]، سائراً سيراً حثيثاً، ويتنافس رأسمالي شديد بين شركات الإنتاج الفني نحو بناء سرديات سينمائية، مهووسة بتكريس عودته عودةً ذات نزوع استثنائي لافت للمشاهد المتخصص في الدرس اللساني الأنثروبولوجي. يتمظهر ذلك التنافس بأفلام هوليودية ملحمية، كانت قد تجلت في بدايات تشكّلاتها القديمة سرديات (رعاة البقر) الأسطورية، التي تتغنى بالرجال القساة الأشداء المتفردين في تضاريس القارة الأمريكية، الذين ينتصرون دائماً على الأعداء، مروراً تصاعديًّا بسرديات (طرزان)، التي كانت في حينها مصدر إبهار العالم الغربي والشرقي على حد سواء، لتتصاعد الوتيرة (الفنية الأسطورية) في سلسلة سرديات (سوبرمان)، والبشر المتحوّلين بسبب طفرات وراثية (جينية) هائلة، والبشر المُدْمجين بالآلات الرقمية الذكية، أو أفلام (كائنات ما بعد الإنسان)، المتخلقة

---

[١٥] يقترح المفكر البريطاني البولندي الأصل؛ زيجمونت باومان مصطلح (الحداثة الصلبة)، بدلا من (الحداثة)، ومصطلح (الحداثة السائلة) بدلا من (ما بعد الحداثة). و(الحداثة الصلبة) هي تلك التي انطلقت في القرن الثامن عشر تأسيساً على تحولات تنامت منذ انتهاء العصور الوسطى، و(تصلبت) في عصر العقلانية المعروف؛ العصر الذي تمخض عن مفاهيم كبرى مثل (الدولة الحديثة)، و(المجتمع)، و(الثقافة)، وكثير غيرها. وكان من سمات حداثة تلك الحقبة ثبات الحدود، والمعالم، ووضوحهما. أمّا (الحداثة السائلة) فهي المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية، المرحلة التي ذابت فيها صلابة المرحلة السابقة، فتداخلت الحدود، وتراخت السمات، وازدادت ضبابيةً، وتشابهت حتى صار من الممكن أن نتحدث عن سيولة، أو ذوبان، سواء أكان ذلك في معالم المجتمع، أو سمات الهوية الفردية، أو خصائص الثقافات (باومان، زيغمونت، ٢٠١٦: ينظر: ١٠-١١).

[١٦] الخوارزميات: هي طرائق خاصة منطقية لحل المسائل (لوريداس، ٢٠٢٢، ينظر:١٤).

[١٧] المثاقفة: مصطلح فيه بعض التجوز، فالواقع -كما نرى-هو التثقيف البشري، لأن أمريكا تفرض معظم بناها الثقافية المؤثرة الرئيسة على العالم، ولا تأخذ سوى أنواع من ثقافات الطبخ، والرقص، والموسيقى، والأزياء، وقصات الشعر، وهي بنى ثقافية ثانوية ليست ذات تأثير مهم في السلوك الأمريكي.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

عن دمج متكرر لمُورِّثات من مصادر أحيائية متعددة، فظهرت بذلك السرديات الأسطورية التي تخطت في منسوب قوة أبطالها قوةَ أبطال سرديات رعاة البقر بكثير، مبشرة بأشكال جديدة للجنس البشري المتحدر أساساً –كما تعتقده، وتروج له المؤسسة الهوليودية– من (القردة العليا)، على وفق نظرية (الانتخاب الطبيعي)، لتنتقل بنا إلى مرحلة (الانتخاب الصناعي)[١٨] ، ما يعني أننا أمام كارثة بنيوية منذرة –نظريًّا سينمائيًّا في أقل تقدير–باختفاء الجنس البشري مِن على كوكب الأرض، فاسحاً المجال لجنس آخر، ناتج عن علميات تهجين حيويّ، يصعب التكهن بمدياتها المستقبلية.

إنَّ موضوعة إعداد البشرية لتقبّل (مرحلة ما بعد الإنسان)، تُعد، في حقيقة أمرها السينمائية، من منظور معرفي (إبستيمولوجيا) نزعةً فنية، ذات منحى دعوي أيديولوجي ساعٍ لتكريس (الداروينيّة الاجتماعيّة) فلسفةً للحقبة الراهنة، ثم القادمة من سيرورة هذا العالم، وهي (الدين الجديد) فريق مهم من فلاسفة الغرب المعاصرين، ومفكريه؛ الدين الذي يستمد تعاليمه الصادمة من نصوص لسانية فلسفية ذات منحى وجودي أنثروبولوجي لـ(توماس هوبز)[١٩]، و(تشارلز داروين)[٢٠]، و(هربرت سبنسر)[٢١]، و(فردريك نيتشه)[٢٢]، الدين النافي–بصيرورة

---

[١٨] الانتخاب الطبيعي: نتيجةٌ آلية للتنازع الحيوي الذي يؤدي إلى بقاء الأقوى، والأصلح، والأحذق. وهو مرتبط بعالم الأحياء البريطاني تشارلس داروين (صليبا، ١٩٨٢، ينظر:١/ ١٤٨). أما الانتخاب الصناعي فهو استبدال قوانين التصميم الذكي، بقوانين الانتخاب الطبيعي. ويمكن أن يجري ذلك بالهندسة الحيوية، أو هندسة الحيوالة؛ (الحيوان والآلة)، أو هندسة الحياة غير العضوية (هَراري، ٢٠١٨، ينظر: 473 و٤٧٦). ويستعمل مصطلح الانتقاء الطبيعي رديفاً للانتخاب الطبيعي، وسنستعمل (المصطلح الثاني)، ونترك (المصطلح الأول) مالم يكن جزءاً من نص.

[١٩] توماس هوبز: فيلسوف إنكليزي، توفي في العام ١٦٧٩، يرى أن حكم الدولة المطلق وحده الذي يضمن القانون، ويفرض السلم الاجتماعي. استبعد من فلسفته شرعية الحق الإلهي. وعدَّ- على أساس نزعة مادية حسية، وأنثروبولوجية واقعية – الإنسان فرداً يعمل بمقتضى قوانين نزعة أنانية نفعية، ومن جملة تلك القوانين ما يشتق من غريزة البقاء، وغريزة السيطرة. يرتبط مذهب هوبز الطبيعي الحسي بالمذهب الطبيعي لعصر النهضة الإيطالية، وترتبط نظريته السياسية بنظرية ميكافلي (طرابيشي، ٢٠٠٦، ينظر: ٧٠٨-٧٠٩).

[٢٠] تشارلس داروين: عالم تاريخ طبيعي، وأحيائي، بريطاني، ولد لعائلة علمية. توفيَ في العام ١٨٨٢. اكتسب داروين شهرته من كونه مؤسساً لنظرية التطور، التي تنص على أن الكائنات الحية كلها منحدرة من أسلاف مشتركة، وأن التطور نتيجة لعملية وصفها بـ(الانتخاب الطبيعي)، وتتم هذه العملية على وفق مبدأ البقاء للأصلح. للمزيد (داروين، ٢٠١٨، ينظر: ٣١-٣٦).(حسيبة، ٢٠٠٩: ٢١٦-٢١٨).

[٢١] هربرت سبنسر: فيلسوف إنكليزي، توفي في العام ١٩٠٣. أراد أن يعطي للعالم تفسيرا يعتمد على العلم، والعقل. يعد مبدأ وراثة الصفات المكتسبة أساساً لنظريته في النشوء والارتقاء. وهو الأب الثاني لعلم الاجتماع بعد أوغست كونت. وكان يرى أن المجتمع مثل الكائن الحي، وأنه يتطور على هذا الأساس. كان أشهر فلاسفة عصره، وأستاذ المذهب الوضعي(طرابيشي، ٢٠٠٦، ينظر: ٣٥٦- ٣٥٧).

[٢٢] فردريك نيتشه: فيلسوف ألماني، توفي في العام ١٩٠٠. يقترب لدى نيتشه عالمُ الصيرورة من عالم الوجود إلى حد التطابق تقريباً. بدأ يتجسد لدى نيتشه تصور فكرة الإنسان الأعلى؛ (السوبرمان) في كتابه الشهير (هكذا تكلم زرادشت)، الذي تغنى فيه بقيم الحياة بوصفها صيرورة، على قيم المعرفة، وكان يطمح أن يكون الكتاب بديلاً عن الإنجيل، وبشارة بالأزمنة الجديدة، وبقيم جديدة أيضاً، تكون بديلة -كما يعتقد هو- عن قيم الانحطاط المسيحية والتشاؤمية والعقلانية والأخلاقية والاشتراكية، فكل هذه المذاهب تلهم الناس - كما يرى- قيم الانحطاط. يرى الفيلسوف الإنكليزي برتراند راسل أن اعتراض نيتشه على المسيحية راجع لاعتقاده بأنها سبب لما أسماه بـ(أخلاق العبيد)، فالمسيحية -بحسب نيشته- عقيدة منحلة، ومفعمة بالعناصر

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

هيغلية– للحقيقة الإنسانية، غير عابئ بما يترتب عليه من أثر تدميري في بنية الحياة البشرية كافة على المستويين؛ القيمي، والحيوي (البيولوجي)، في الحقبة الراهنة، والقادمة من التاريخ.

خامساً: التأصيل الفلسفي للسرديات الأسطورية الهوليودية

ثَمَّةَ أصول فلسفية مؤسِسة، أوصلت الحضارة الغربية إلى مرحلة الحداثة، ثم –بحتميات جدل التاريخ– إلى مرحلة ما بعد الحداثة، وكانت تلك (الأصول) هي –بالنتيجة–البنى المضمرة المنتجة للسرديات الأسطورية الهوليودية، ويمكن إرجاعها إلى حقلين فلسفيين كبيرين، شَكّلا –منذ بدايات عصر النهضة–نمط وعي الإنسان الغربي بنفسه، وبالطبيعة، والحياة، بل بالوجود العام بمعناه (الأنطولوجي). وتأسس الحقلان كلاهما في مطالع عصر النهضة الغربية الحديثة، ليستمرا بعد ذلك في النمو والتناسل على يد فلاسفة غربيين متتابعين عبر الأزمنة الحديثة؛ أزمنة ما بعد لحظة انطلاق عصر النهضة الأوربية، ويُطلق عليهما مصطلح (السلالتان الضخمتان) للفكر الغربي الحديث، وقد بدأتا مع رينيه ديكارت[٢٣]، وتوماس هوبز، وهما (سلالتان) تهدفان إلى إعادة بناء العالم، لا بوصفه جزءا من صنيع الإنسان، ولا بوصفه معجزة إلهية، ولكن بوصفه موجوداً طبيعيًّا. ويختلف هذان الفيلسوفان الغربيان اللذان أسسا هاتين (السلالتين) على طبيعة الإله والإنسان، ومكانتهما في العالم، فرينيه ديكارت يرى أن الإنسان موجود طبيعي، ولكنه إلهي بشكل جزئي، وهو –من ثَمَّ– متميز عن الطبيعة، ومتحرر من قوانينها. أما توماس هوبز فيرى أنَّ الإنسان طبيعي تماماً، وهذا يعني بأنه حرٌّ بحرية تتوافق مع سببية العالم الطبيعي (جيليسبي، ٢٠١٩، ينظر: ٣٠)[٢٤]. وإذا كانت السلالة الديكارتية نافية للأسطورة، وراعية للحداثة، فإن السلالة الهوبزية، نافية للأسطورة أيضا، لكنها راعية لمرحلة ما بعد الحداثة، وممهدة –على الرغم من إيمانها بالسببية– بطريقة فنية سينمائية هوليوودية، البيئة العالمية الصالحة لاستعادة الأسطورة. وهذه مفارقة فلسفية مذهلة، ولكن من منظور ذرائعي، ورؤية نفعية، استثمارية.

المفسدة العفنة، ومنكرة لقيم الكبرياء، والاختلاف، والنزعة الحيوانية، وغرائز الحرب، والثأر، والغضب، والشهوانية، والمغامرة، والمعرفة، وكل هذه الأمور عناصر خير -كما يرى نيشته- لكن المسيحية تقول عنها بإنها شرّ(طرابيشي، ٢٠٠٦، ينظر: ٦٧٧- ٦٨٠).

[٢٣] رينيه ديكارت: فيلسوف فرنسي، توفي في العام ١٦٥٠، صاحب المؤلف الشهير؛ (مقال في المنهج)، والمقولة الشهيرة: (أنا أفكر إذن أنا موجود). كان يعتقد أن فلسفته على وفاق مع الإيمان، وأنها الطريقة الوحيدة للتوفيق بين الإيمان وما أحرز في عصره من نتائج التقدم في المعرفة الطبيعية. آمن بـ(الشك المنهجي)، وأخذ على نفسه أن يشك في أي شيء يقبل الشك، حتى بالأمور التي تعد بين الناس على درجة كبيرة من اليقين، منها على سبيل المثال ما يحيط به من أشياء مادية. لم يكن ديكارت ميتافيزيقيًّا، وفيلسوفاً بالمعنى الحديث فقط، بل كان ككثير من فلاسفة القرن السابع عشر عالماً طبيعيًّا، له اهتمامات بالطبيعة وعلم وظائف الأعضاء، فضلا عن اهتمامه بالرياضيات (جوناثان و أرمسون، ٢٠١٣، ينظر: ١٨٤ و١٨٩- ١٩١).

[٢٤] والمؤلف فيلسوف أمريكي ولد في العام ١٩٥١.

إن الحضارة الغربية تسير اليوم باطّراد –بعد تصدع حقبة الحداثة المتواصل، وانبثاق عصر ما بعد الحداثة– على خطى فلسفة توماس هوبز، لأن الإنسان تجري عليه–بسبب كينونته الطبيعية بحسب هذه الفلسفة–قوانين الطبيعة الساعية نحو القوة، بل نحو المزيد منها بشراهة لا يحدّها شيء سوى الإمكانات المادية المتاحة لها، وظل يتحقق ذلك بطرائق شتى، كشنِّ الحروب الاستعمارية الاحتلالية خارج إطار أقاليم الجغرافيا الغربية، وتأصيل فكرة الصراع من أجل البقاء، على وفق الفلسفة (الداروينيّة الاجتماعيّة)؛ الدين الحقيقي للحياة الغربية، على مستوى الشعوب البيضاء المتعددة، وعلى المستوى الفردي في المجتمع الواحد. فمن هذه الوجهة الفلسفية تنفي الفلسفة الهوبزية الأسطورة، وتجعل الصيرورة المحرِكة لهذا العالم منوطة بقوانين التطور الطبيعي، الأمر الذي يفضي إلى اقتراب مرحلة تخليق أجناس (بعد بشرية) جديدة، وهذا كله يُعد تمجيداً للتفكير العلمي الوضعي المنطقي الذي يتعامل به الإنسان الغربي، ويرفعه إلى مستوى القداسة، والتأليه، لكن السلالة الهوبزية نفسها تستثمر في حقبتها الزمنية الراهنة –كما تأسس لدينا– الأسطورةَ الماضويةَ، بطريقة تقنية حديثة في صناعة أفلام سينمائية مغرقة في (الخرافة)، أو (الخيال العلمي)، ساعية من ورائها إلى شن حملة تثقيفية متواصلة منذ مدة زمنية طويلة، مهمتها إعداد مليارات من سكان الكوكب لتقبل موضوعة قرب حدوث طفرات وراثية جينية، وتحولات أحيائية (بيولوجية) على مستوى أجناس العالم، أو بمصطلح لساني دراويني: على مستوى السلسلة الغذائية للكائنات الحية. ولكي تنسجم الفلسفة الهوبزية مع نفسها فلا بد للقوى المؤمنة بها من أن تكون المُبلّغ الأشد صدارة في عملية التبشير بـ(مرحلة ما بعد الإنسان)، بطريقة تتراجع فيها –بشكل دائم–الفجوة التقليدية في تاريخ البشرية بين الطبيعة والثقافة(بريدوتي، ٢٠٢١(206 :، ومادام الإنسان – على وفق الفلسفة الهوبزية–كائنا طبيعيًّا، فإن الطبيعةُ وحدها تتحول إلى (منتِج وحيد) للثقافة.

إن (مرحلة ما بعد الإنسان)، التي تفضي السلالة الهوبزية، بحتمية أحيائية فرضية، إلى حدوثها، أو كما هو مراد لها، إنما هي– بحسب رؤية بعض مفكري الحضارة الغربية– حقبة زمنية مثالية لتقرير الشكل الذي تتحول إليه البشرية، بل فرصة فريدة للإنسان–على وفق الرؤية عينها– لإعادة اختراع نفسه بشكل إيجابي (بريدوتي، ٢٠٢١: ٢١٤)، وبموازاة ذلك، وبنتيجة مترتبة عليه جاء سعي صناعة السينما الأمريكية السيّال في إنتاج مزيد من سرديات الأفلام الأسطورية بأبعادها؛ اللسانية، والسيميائية، ليكون هذا (المزيد الإنتاجي) البديل التنافسي المدمر لعصر سرديات أفلام الحب الرومانسية، والمغامرات الفردية، وسرقة المصارف، والإمساك بالمجرمين على طريقة شارلوك هولمز، التي لا تكاد تخلو –على

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

الرغم من نزعات أبطالها الفردانية– من صراع الثنائيات المألوفة في الحياة البشرية، وهذا شيء حسن، ومحافظ على مقولات مهمة في منظومات الأخلاق البشرية، التي تسعى حقبة السلالة الهوبزية، أو حقبة ما بعد الحداثة إلى تدميرها، مع أنها –في مألوف الثقافات البشرية– ثنائيات يُفترض بقاؤها متعاليةً على التاريخ، ومنها ثنائية الخير والشر، أو صراع الأخيار والأشرار، أو الصالحين والطالحين.

إن هذه الثنائية؛ (ثنائية الخير والشر)، التي رسمت تاريخ البشرية منذ أن وعت نفسها هي الآن –بحسب السرديات الأسطورية الهوليودية الجديدة– في طريقها إلى التفكك، بل التفكيك المتعمد الكامل، فلا شيء اسمه (ثنائية الخير والشر)[٢٥] في الطبيعة البشرية بحسب (السلالة الهوبزية)، وما (الخير)، و(الشر) في عصر ما بعد الحداثة إلا مصطلحان لسانيان أنثروبولوجيان (حداثيان ديكارتيان) متخلّفان، لا مناص من إسقاطهما عن منصة التعالي على التاريخ، لأن الموجود–بحسب المرجعية الهوبزية–هو صراع القوى المادية البحتة، التي لاتزن البقاء على قيد التحقق بثنائية الخير والشر، بل بالصراع المحموم على البقاء، فالقوة العليا تطيح بالقوة الدنيا، لتحظى بمتعة الاصطفاء، والتربع على معطيات الوجود الحسية في العالم، أو في العالم الطبيعي، فليس ثمة عالم إلا العالم الطبيعي، وهي تملك –لتفعل ذلك– الحق الحيوي (البيولوجي)، والشرعية الفيزيائية.

ومع سرعة انتشار الـ(أنا) الأمريكية بوصفها النموذج البشري (المثال) في الزمن الراهن، ومع سرعة تعزيز حضور القيم الأمريكية في الكوكب، وتفكيك ثنائية الخير الشر، وتسارع تقدم السلالة الفلسفية الهوبزية، بدأت دالّات لسانية أنثروبولوجية ثقافية مهمة بالذوبان، وفقدان أثرها الدلالي الراتب القديم الراسخ في سيرورة الحضارات البشرية[٢٦]، من ذلك مثلا؛ مصطلح (الزنا)، و(عقوق الوالدين)، و(غض البصر)، و(التقوى والورع)، و(الخشية من الله)، و(مبدأ ولاية الأب)، أو (ولاية رب الأسرة) على أطفاله الصغار، و(من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنا بها بقلبه)، بمعنى أن (الوصايا العشر)[٢٧] التوراتية الإنجيلية لم يعد لها أي

---

[٢٥] يقول الأستاذ تشاندلر: ((اعتبر ليفي شتراوس أن بعض التقابلات الثنائية الأساسية كثوابت الفكر البشري، أو كلياته العالمية موجودة في مختلف الثقافات)) (تشاندلر، ٢٠٠٨: ١٧٩). في الحقيقة هذه الثنائية هشة للغاية في أصل المعتقد المسيحي، فليس ثمة خوف من عقاب، ولا حاجة للتكفير عن أي ذنب ما دام الإنسان المسيحي يستطيع بالاعتراف أمام القس أن يمحو كل ما اقترفت يداه، حتى لو قتل العشرات، وسرق مصارف أمريكا كلها.

[٢٦] من مظاهر ذلك في المتداول في الحياة العراقية استعمال مصطلح (العميد) للرجل والمرأة، وكذلك الأستاذ، والنائب البرلماني، ومثل هذه التحولات تجري بحسن نية، أو بجهل بحقيقة اللغة، لكنها من منظور لساني أنثروبولوجي تعزز -من حيث لا تدري- تذويب الثنائيات الأنثروبولوجية لصالح تمركز القوة الذي قد يكون مركزا وظيفيا، أو اجتماعيا، فالقوة هي الأساس، وليس الحقيقة الجسدية للكائن البشري.

[٢٧] الوصايا العشر هي :١- أنا هو الرب إلهك، لا يكن لك إله غيري.٢- لا تحلف باسم الله بالباطل.٣- احفظ يوم الربّ.٤- أكرم أباك وأمك.٥- لا تقتل.٦- لا تزنِ.٧- لا تسرق.٨- لا تشهد شهادة زور على قريبك.٩- لا

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

وجود فعلي ومؤثر في أرض الواقع المسيحي اليومي للشعوب الغربية البيضاء. وبدأ مصطلح (نظام الأسرة)، أو (بنية الأسرة) بالتحول نحو مضامين أخرى لم تعتد عليها الثقافات البشرية الرئيسة في العالم، المصابة بالعدوى الثقافية، مع الأخذ بالحسبان حجم مصاديق التحولات في الحضارات المختلفة. إن تصدع البنى الثقافية الراتبة قد يكون اليوم حاصلا على أقسى تفشٍ له في مجتمعات الحضارة الغربية، لكن المسألة مسألة وقت ليس أكثر، فمع استمرار سيطرة الثقافة الأمريكية، واللغة الإنكليزية، وتزايد الاعتماد على التكنولوجيا الغربية المُيسَّرة، فإن مرحلة عولمة (نظام الأسرة) الغربي الجديد هي المرحلة القادمة، ودالات المعجم الأنثروبولوجي الأمريكي آخذة ببسط سيطرتها على ثقافات العالم، ما لم يتدخل (العامل المجهول)، أو (العامل غير المفكَّر فيه) في تفسير حركة التاريخ، ويعيد حال البشرية إلى سابق عهدها.

إن بنيات عصر ما بعد الحداثة (الهوبزية) ليست خارجة –بأية حال–عن نطاق النشاط اللساني الفلسفي الأنثروبولوجي الغربي المساوق لعصر النهضة الأوروبية، فثمة جذور فكرية خطيرة أسست لكل هذا التخريب القيمي، يمكننا بتحليلها فهم كيفية دفع (دالات منظومات القيم البشرية) إلى التآكل، والتسارع نحو اندثارها اندثاراً تلوحُ ملامحه في أفق المستقبل البشري، وهو الاندثار الذي حدث في بادئ أمره –كما بات واضحاً–في الجغرافيا الغربية على اتساعها. فمن أين جاء هذا التبدل الخطير في منظومة القيم الغربية المسيحية التاريخية؟ ولماذا يحصل هذا الانقلاب المعرفي (الإبستمولوجي) على السيد المسيح (عليه السلام) نفسه، وعلى الإنجيل، بوصفه أحد الأقانيم الرئيسة التي قامت عليها الثقافات الغربية عبر الأزمنة؟ وما البنى الثقافية المضمرة المنتجة لهذا السيل الجارف من السرديات السينمائية الهوليودية الأسطورية التي ستكون محل اهتمام دراستنا هذه، في جزئها التطبيقي؟ ولماذا يحدث كل هذا التدمير المتعمد لـ(الحقيقة الإنسانية) مع سبق الإصرار والترصد الفلسفي الأنثروبولوجي، والعلمي التقني الحاسوبي، والهندسي الوراثي (البيولوجي)؟

ولكي ندرك حقيقة التحولات الفكرية البنيوية في مجريات عصر النهضة الأوربية الحديثة لا مناص من ربط (السلالتين الضخمتين) في الفلسفة الغربية بنشاط (فلسفي وجودي)[٢٨] كبير، في حقلين لسانيين انثروبولوجيين مهمين، غير عابئَيْنِ كثيراً بـ(المقدس

تشته بيت قريبك.١٠- لا تشته امرأة قريبك. (ينظر: الكتاب المقدس، العهد القديم (سفر الخروج؛ إصحاح ٢٠) ص ١٢٠-١٢١)

[٢٨] ليس المقصود الوجود بالمعنى الأنطولوجي، بل الفلسفة الوجودية القائلة بـ((أن الوجود متقدم على الماهية، وأن الإنسان مطلق الحرية في الاختيار، يصنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه)) (صليبا، ١٩٨٢: ٥٦٥/٢). والوجودية فلسفة غير مثالية، وغير نسقية، بل هي (إنسانية، أي فلسفة هيومانزم) بامتياز، وعلى وفقها فعل ما فعله مارتن لوثر بالعقيدة المسيحية المتوارثة.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

الديني التقليدي)، وغير متعالين على التاريخ، بل هما مندكّان في صيرورة مادية طبيعية (ديالكتيكية) متطرفة، لا تكاد تدع شيئا خارج نطاق تأثير قوتها المتحكمة، والحقلان هما؛ (العقيدة البروتستانتية و الرؤية الوجودية في فهم العالم)، و(الداروينية الاجتماعية والتحضير لحقبة ما بعد الإنسان).

الحقل الأول: العقيدة البروتستانتية و الرؤية الوجودية في فهم العالم

البروتستانتية(حمد، ١٩٩٨، ينظر: ٥٢)[٢٩]: فرقة مسيحيّة منشقة عن الفرقة الكاثوليكية، ظهرت إبّان حقبة الإصلاح الديني في أوروبا، في القرن السادس عشر، وقدمت نفسها بوصفها ثورة ثقافية شعبيّة، وردةَ فعل عَقائدية دينية شديدة جدًّا على كنيستها الأصلية؛ (الكاثوليكية). كان احتجاج البروتستانت بـ(اسم الإنجيل والعقل)، وبرز قائماً على التصدي لعدد من القضايا المهمة الملتبسة الشائعة في الديانة الكاثوليكية كصكوك الغفران، وسلطة البابا، والتبتل، وإكرام القديسين. ويُعدُّ القس مارتن لوثر المتوفى في العام (١٥٤٦)، أول من دعا إلى المنهج الجديد؛ (البروتستانتي)، وبه ابتدأ عصر (الإصلاح الديني) في أوروبا، والعالم الغربي(حمد، ١٩٩٨، ينظر: ٥٢) .[٣٠]

انتقد مارتن لوثر الكنيسة الكاثوليكية (الرومانية)، وعدَّ (البابا) المسيحَ الدجال لأنه–كما يرى– لا يتشبث بالمسيحية التي ورثها عن الحواريين، بل يلحق بها إضافات من الشيطان(هندريكس، ٢٠١٤، ينظر:٥٩). من مبادئ الكنيسة البروتستانتية (حمد، ١٩٩٨، ينظر:٥٢): القول بأن (الإنجيل) هو المصدر الوحيد للمسيحية، ولكل إنسان مسيحي حق القراءة، والتفسير، كما شرّع مارتن لوثر حرية زواج رجال الدين (سبنسر، ٤٣). وقد كان الشغف بتحقيق الحرية الشخصية العامل الفعال الذي أدى إلى (النهضة البروتستانتية) (سبنسر، ٤٤). حقق مارتن لوثر بقيادته حركةَ الإصلاح الديني، نجاحاً باهراً، واعتنق مذهبه عدد كبير من الناس. وكان ظهور البروتستانتية الأول في ألمانيا، وإنجلترا، وفرنسا، ثم انتشرت في هولندا، والدانمارك، وسويسرا، والنرويج، وأمريكا الشماليّة.

---

[٢٩] وكلمة البروتستانت؛ (PROTESTANT): كلمة لاتينية معناها (المحتج)، وقد استخدمت أول مرة عام ١٥٢٩م حينما احتج بعض الألمان على محاولة الكنيسة الكاثوليكية الحد من نشاط اللوثريين، ثم أطلق الاسم بعد ذلك على جميع الطوائف المسيحية التي اختلفت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وخرجت عليها. وللبروتستانتية أثر قويّ في التاريخ الثقافي والسياسي للبلدان التي تنتشر فيها، وقد أثرّت تأثيراً واسعاً - بوصفها ثقافة- في مجال التعليم، والعلوم الإنسانية، والطبيعيّة، والنظام السياسي، والاجتماعي، والاقتصاد، والفنون، وغير ذلك (مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ينظر:٣٧٦/٤).

[٣٠] ومارتن لوثر: راهب ألماني أوغسطيني، ولاهوتي، مفكر، وأديب. وأوغسطيني: نسبة إلى أوغسطين (ت٤٣٠ م)؛ وهو عالم اللاهوت المفضل لدى مارتن لوثر، وتسمى الجماعة التي تتبعه بـ(الأوغسطينيين)، وهي جماعة لا تعتنق الرهبنة المتشددة، وانضم إليها مارتن لوثر في العام ١٥٠٥(هندريكس، ٢٠١٤، ينظر: ١٢٧).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

البروتستانتية أكثر الطوائف الدينية عدداً في الولايات المتحدة الأمريكية (الحسن، ٢٠٠٠: ينظر: ٥٢). وثمة (خط بروتستانتي عام) تُعَدُّ كنائسه التي تضم مسيحيي (النخبة)، و(الطبقة العليا) في المجتمع الأمريكي، أشد الكنائس انتشارا، وأكثرها تأثيرا في صياغة السياسة الأمريكية، وتسمى بـ(كنائس البروتستانت الأنجلوسكسون البيض)؛ (White Anglo-Saxon Protestant) (الحسن، ٢٠٠٠: ينظر: ٥٢-٥٣). لم تتخلَّ البروتستانتية عن عقيدة التثليث المسيحية، فهي تعتقد بإله واحد في ثلاثة أقانيم؛ (الآب، والابن، والروح القدس). ولم تتخلَّ كذلك عن مبدأ (التجسد الإلهي) فهذا الابن الإله؛ (السيد المسيح) تجسّد إنساناً ليفتدي البشر من خطيئة آدم (عليه السلام)، ولا تمتاز البروتستانتية في هذا المعتقد عن سائر المذاهب المسيحية (حمد، ١٩٩٨، ينظر: ٥٢). كما تؤمن البروتستانتية-وهذا شيء تأسيسي، وأساسي جدًّا فيها- بمبدأ (الإيمان وحده)، أي إن الخلاص متعلق بالإيمان فقط، من دون الحاجة إلى القيام بالأعمال الصالحة التي تستأهل الثواب (هندريكس، ٢٠١٤، ينظر:٦٢). وتكون المسيحية البروتستانتية بالتزامها بـ(مبدأ التجسد الإلهي في الإنسان)، وبـ(مبدأ الخلاص بالإيمان المجرد)، مع تزامن ذلك بتنامي قوة أمريكا العلمية، والاقتصادية، والعسكرية، والسينمائية (الهوليودية)، قد فتحت أبواب الشر الواسعة على البشرية.

أ-المبدأ البروتستانتي الأول؛ التجسُّد الإلهي في الإنسان

فتحت البروتستانتية -بحسب هذا المبدأ- الباب على مصراعيه لتجبّر المسيحيين البروتستانت، وتحوّل الإنسان البروتستانتي القوي، المتمكن من أسباب التسلط إلى سيد استعماري إمبريالي، ثم -بمرور الزمن- إلى (إله) من بين (آلهة) بروتستانتية كثيرة نظيرة له، ومزامنة، تزاحمه في الزمان والمكان، في منافسة شديدة بين البروتستانت أنفسهم على القوة والاستحواذ. فمبدأ التجسد، والاندماج بين الإله والإنسان، هو المبدأ الذي ظل يشكل خطراً متنامياً على مسيرة الإنسانية[٣١]، لأنه شرعن -بحماية دينية عقائدية-التجبر الإمبريالي الغربي على الأمم الأخرى، وصنع شكل العالم الحديث، القائم على سيطرة القوة الأمريكية العظمى، التي تغزو العالم بشعارات ثقافية مختلفة، يعج بها (المعجم التداولي السياسي الغربي)، كـ(حقوق الإنسان)، و(نشر الديمقراطية)، و(حماية الحريات العامة)، و(مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة)، و(الحرية الجنسية)، لكنها كلها لا قيمة حقيقية لها في ميزان المساواة المفترض بين أمريكا والشعوب الأخرى، لأنها بنى ثقافية مصدرة بدوافع ذرائعية، وظيفتها استدراج شعوب العالم نحو الخضوع لثقافات العالم الغربي، وسلطته

[٣١] من مظاهر ذلك في الحضارات كافة -ولكن بوجه آخر- ظهور الملوك، والأباطرة، الطغاة الجبارة، الذين يدّعون نسبتهم إلى الربّ، أو يقولون بأنهم هم أرباب.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

البروتستانتية، المهووسة بفرض سيطرة الإنسان المسيحي البروتستانتي الأبيض المادية على الكوكب، مع شعور تام براحة الضمير، المتأتية من يقين الحصول على الرضا الإلهي؛ يقول د. عبد الوهاب المسيري: ((الإنسان البروتستانتي إنسان إمبريالي يدخل في علاقة مع الخالق (المبدأ الواحد المقدَّس)، وهو –أي الخالق– يختاره ويصطفيه دون البشر، ويحل ويكمن في ذاته المقدَّسة حتى تصبح إرادة الإنسان من إرادة الإله (حتى يكاد الإنسان يتأله)، كما أن هذا الإنسان تأتيه شواهد مادية صلبة لا ريب فيها علامةً على الرضا الإلهي، ولذا يكون بوسعه أن يتمركز تماماً حول ذاته)) (المسيري، ٢٠٠٢: ٢/ ١١٣[٣٢])، ما يعني أن العالم الغربي مكتظ –بالنتيجة، وفي واقع الحال– بالآلهة المتنافسة، الساعية إلى القوة، ثم إلى المزيد منها، فـ(الإنسان البروتستانتي) مصطلح دالٌّ على النوع، أما مصاديقه فهي كل فرد بروتستانتي، يمكنه التفوق، والفوز بسباق التغالب على عوامل تحقيق الاستحواذ والسيطرة.

ولفهم هذه المعضلة لا مناص من التأسيس لمعرفة أن (التجسد الإلهي) جزء ثقافي رئيس ممّا هو موروث عن النصوص المسيحية القديمة، التي سبقت –بزمن مديد– ظهور المذهب البروتستانتي؛ يقول إنجيل يوحنا: ((والكلمة صار جسدًا وأقام بيننا ورأينا مجدَه مجدًا كما لمولودٍ وحيدٍ من أب مملوءاً نعمة وحقًا)) (الكتاب المقدس، العهد الجديد (يوحنا ١: ١٤) ص ١٥٧٧). ويقول القديس أثناسيوس الإسكندري: ((لن يحملك الوهمُ إلى أنّ المخلّص حملَ جسداً في سياق طبيعته، ولكنه، وهو الخالي من الجسد بطبيعته، وهو الكلمة، ظهر لنا مع ذلك في جسدٍ بشري لأجل خلاصنا، وذلك بدافع من صلاح أبيه ومحبته للبشر)) (الإسكندري، ١٩٩٨: ١٢)، فالتجسد –بحسب هذين النصين– ليس شيئاً أصيلا من طبيعة السيد المسيح، بل هو أمر أو حال طارئ، ما يعني أن المسيح –بحسب الأنثروبولوجيا المسيحية– هو ابنٌ للإله على الحقيقة، وإن ألوهته ليست مجازية، بل حقيقة وجودية بالمعنى الأنطولوجي. أمّا تجسده، أو ظهوره جسداً في الوجود الطبيعي فهو الأمر الطارئ، أو الحالة الطارئة التي اقتضتها الضرورة، وهو المنّة التي مَنَّ بها الإله الرحيم، بقصد أن تكون سبباً في تحقيق خلاص الإنسان. ويقول الفيلسوف الألماني أرنست كاسيرر: ((الدين المسيحي يستند إلى فكرة التجسد التي تُعدُّ من أركان عقيدته، وإن كان تجسّد المسيح واقعة تاريخية، وليس واقعة ميتافيزيقية. إنها حادثة وقعت في زمان)) (كاسيرر، ١٩٧٥(344 :، فالمسيح –بحسب شرح نصّ كاسيرر للعقيدة المسيحية– تجسد تاريخي، فيزيائي وقع في البعد الطبيعي من الوجود لابن الإله الخالق القدير، ما يعني أن الأساس في شخص السيد المسيح هو التعالي على التاريخ، ولكن (الرحمة الإلهية) شاءت أن يتخلى عن صفة (التعالي) مؤقتاً،

[٣٢] والكلام من باب شرح ما يراه البروتستانتي عن نفسه، وليس قناعة الدكتور المسيري.

ليتجسد بشراً في البعد الفيزيائي، أو الطبيعي من العالم، وهذا أمر في غاية الخطورة العقائدية، فلمَّا كان المسيحيون (أبناء الله وأحباؤه)، يقول الإنجيل: ((سعداءُ همُ المسالمون، فإنهم أبناء الله يُدعَون)) (الكتاب المقدس، العهد الجديد (متّى٥: ٩) ص: ١٤٣٧). ويقول الإنجيل: ((أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك)) (الكتاب المقدس، العهد الجديد (متّى ٦:٩) ص ١٤٤٠)، لما كان الأمر كذلك، فليس ثمة مانع –من منظور أنثروبولوجي، وعلى وفق الطبيعة البشرية في سيرورة التحوّلات– من تطوّر الأمر لدى (أبناء الله) ليكونوا مواضع كثيرة لـ(التجسد الإلهي)، شأنهم شأن السيد المسيح (عليه السلام). وهذا ما يشعر به الإنسان البروتستانتي الإمبريالي شعوراً فعليًّا في واقع الحياة اليومية، على مدى مئتي عام من المدّ الاستعماري الإمبريالي. وعلى فرض أن بُنُوّة الإنسان البروتستانتي والمسيحي بشكل عام للإله الخالق في العقيدة المسيحية بُنوة مجازية فإن هذا الإفراط في التعامل بالمجاز، فتح باباً نحو الشعور المتنامي–مع الزمن، وعبر أجيال مسيحية متتالية– بتحوّل أجساد أبناء الإله الخالق القدير إلى محالّ مادّية لتموضعه الإلهي المتواصل. ومن منظور جدلي (ديالكتيكي) يبقى النص الإنجيلي –حتى لو كان مبنيًّا على المجاز اللساني– مفتوحاً على تكريس مبدأ تجسد الإله الخالق القدير في كيانات عباده المؤمنين المحسوسة، الذين يطمحون إلى التحوّل إلى (آلهة)، أو (كائنات عليا) ما داموا يملكون القوة المادية المفرطة التي تمكّنهم من تحقيق إدارتهم للعالم. وإذا كان التجسد مَرْضيًّا عنه الرضا العقائدي، المصحوب بطبيعة العقل الغربي الجدلية، فلا مانع –إذن–من تحّول الإنسان الغربي المتفوق علميًّا إلى الإله البديل القادر على كل شيء، وقد تكرس الشعور بهذا الأمر في واقع السياسة الغربية منذ بدايات الحقبة الاستعمارية التي غمرت العالم.

تفضي معضلة (التجسّد المسيحي) باستمرار –مع استشراء إيمان الإنسان الغربي بقدراته المادية–إلى اكتظاظ العالم بـ(الآلهة) المُصَنَّعة، الأمر الذي ينتج عنه ثقافة انتفاء وجود الإله الخالق القدير المفارق بألوهيتِهِ الساميةِ لعالم الطبيعة، ليكون –بالنتيجة–حالًّا في أبنائه الأسياد، الأبطال البروتستانت، القادرين على إخضاع العالم لقواهم الأسطورية الفائقة. ومما يزيد مبدأ التجسد قوة، ورسوخا، وثباتاً في البنى الثقافية الغربية أن كبار فلاسفة العالم الغربي، المؤمنين، أو غير المنكرين لوجود الله تعالى، يعتقدون بمذهب (وحدة الوجود)، بوصفه جزءاً رئيساً من تفلسف العقل الغربي، وهو الجزء المتغلب، المهووس بالقوة المادية، الجانح باستمرار نحو مزيد من محو الفارق بين الغيب والشهادة، فـ((الله والطبيعة شيء واحد)) (كاسيرر، ١٩٧٥: ٣٤٣)[٣٣]، على نحو ما يرى الفيلسوف الألماني باروخ سبينوزا،

[٣٣] و((كان سبينوزا يؤمن بفكرة وحدة الوجود إذ كان يرى أن الله هو الكون، وكل ما في العالم هو تعبير عن الخالق)) (المسيري، ١٩٧٥: ٢١٣).

أمّا على نحو ما يرى مواطنه الفيلسوف الأكثر شهرة فريدرك هيغل فإن (الإله) مرادف للتاريخ؛ مرادف ليس بوصفه أحداثاً جزئية، بل في حال النظر إليه في جملته (كاسيرر، ١٩٧٥، ينظر: ٣٤٨)، فـ((التاريخ لم يبد في مذهب هيغل مجرد مظهر لله، بل بدا حقيقة، فليس لله تاريخ فحسب، إنه هو التاريخ)) (كاسيرر، ١٩٧٥: ٣٤٨) [٣٤]، وهذا بعضٌ من أخطر تمظهرات التذويب الحثيث المتواصل للفارق بين الواقع والمثال في الحضارة الغربية، وهو النتيجة الحتمية للإيمان بمبدأ وحدة الوجود، المفضي –باستمرار، وبشكل مذهل– إلى دحر الحقيقة الدينية المثالية، المؤمنة بضرورة ديمومة تعالي الغيب الإلهي على المشهد البشري، والمطلقات الروحية على المتغيرات الفيزيائية. وبسقوط الحد الفاصل بين الغيب والشهادة تسقط أكثر ثنائيات الإنسان الثقافية التناظرية صلابة، وفي الطليعة منها (ثنائية الخير والشر)، التي بقيت حاضرة عبر الأحقاب والأزمنة. ومما يلفت النظر المعرفي (الإبستمولوجي) أن مستوى (البعد الأنثروبولوجي) في بعض النصوص اللسانية المسيحية الدينية والفلسفية يتخطى (البعد الأنثروبولوجي) فيما صنعته جماعات قبلية وثنية، من نصوص سيميائية ولسانية، فالإنسان العربي القديم الوثني مثلاً، الذي صنع أصنامه الأنثروبولوجية المحسوسة، ما كان يرى فيها شيئاً مهمًّا في سيرورة حياته اليومية عدا كونها (علامات سيميائية) مقربة إلى الله تعالى، تتحول بطبيعة سيرورة الدالات المحسوسة إلى (أيقونات رامزة) عندما تحظى بالعناية المركزة على مر الأزمنة[٣٥]، لكنها لا تتحول إلى جسد إلهي، أو موضع تجسد إلهي، بل إن العرب الوثنيين كانوا يأكلون أصنامهم التي صنعوها من التمر في أوقات الجوع، وأزمنة الفاقة، والإملاق، والحاجة إلى الطعام، فالصنم؛ (الإله) كان يتحول–في لحظة حسية– إلى مادة استعمالية منزوعة القداسة والتكريم، وفاقدة لأيةِ دلالةٍ سيميائية ثقافية، ما يعني أن مبدأ التجسد المسيحي فاق، أو تجاوز في بعده الأنثروبولوجي حتى الديانات الوثنية، ولا تكفي –الدينَ المسيحيَّ– النوايا الحسنةُ، ولا التأويليةُ (الهرمنيوطيقية) لتسويغ الأمر.

يتأكد –إذن– سير العالم الغربي، بدعم من التفوق العلمي والتكنولوجي، والأحيائي (البيولوجي) المتسارع، نحو المزيد من ثقافة الدمج التام بين الغيب المعقول والطبيعة المحسوسة، من أجل إلغاء الغيب، وتكريس تفرّد الطبيعة بالوجود، فلا يبقى بعد ذلك شيء وراءها، وهذا هو بالضبط المُنتِج الرؤيوي الخفي لما تقوم به السينما الأمريكية الهوليودية، التي ينبثق منها بين (سردية دراميّة) وأخرى، بطلٌ أسطوري، ليس به حاجة لدعمٍ ما من

[٣٤] وقد رفض فريدريك هيغل فكرة الانفصال بين (الزمان) و(الأبدية)، ففي التاريخ لا انفصال بين عاملي (الزمان)، و(الأبدية) بل هما متداخلان، ولا تعلو الأبدية على الزمان(كاسيرر، ١٩٧٥، ينظر: ٣٤٦).
[٣٥] كما هي الحال في (اللات، والعزى، وهبل).

خارج وجوده الطبيعي، بل هو الكائن البطل (القادر) على صياغة شكل العالم على وفق مشيئته الذاتية، شأنه شأن أي إله إغريقي، أو روماني قديم. وبذلك يتجلى الإنسان الأمريكي البروتستانتي بصورة الرجل الخارق؛ (طرزان)، أو (سوبرمان)، أو (سبايدرمان)، أو أي بطل آخر ليس به حاجة إلى الصلاة، أو الاستعانة، أو الدعاء أو تقديم فروض الطاعة والشكر للإله القدير، أو رسم علامة الصليب الوهمية بعد كل إنجاز بطولي خارق، لأنه يستطيع – منفرداً، مزهواً بنفسه– القيامَ بالمهمات الكونية، التي تخرق قوانين الفيزياء. وفي بيئة كهذه نافية لتأثير الإله في مجريات العالم الطبيعي تترسخ العلمنة المتوحشة الشاملة التي يفضي ازدياد معدلاتها إلى تحويل (المبدأ الواحد المقدس) إلى (المبدأ الواحد المادي)، و(وحدة الوجود الروحية) إلى (وحدة الوجود المادية)؛ يقول د. عبد الوهاب المسيري: ((منظومة التحديث والعلمنة الغربية تدور في إطار ما نسميه (الحلولية الكمونية المادية)، أو (المرجعية الكمونية الذاتية)، وما يميز هذه المنظومة، على مستوى البنية العامة أن المبدأ الواحد المنظِّم للكون ليس مفارقاً له أو منزهاً عنه، متجاوزاً له، وإنما كامن (حالٌّ) فيه، ولذا فالكون (الإنسان والطبيعة) يصبح مرجعية ذاته، ومكتفياً بذاته)) (المسيري، ٢٠٠٢: ١/ ٣٢١) [٣٦]، ويرافق ذلك –على طول خط الزمن– تسيّد النزعة التجريبية الوضعية الضيقة، ويظهر الإنسان ذو البعد الواحد المتمركز حول ذاته؛ (الإله البروتستانتي) (المسيري، ٢٠٠٢، ينظر: ٢/ ١١٤)، الذي لا يتورع عن احتساب سائر موجودات، بما فيها البشرية غير البروتستانتية، مجرد مادة استعمالية.

ب–المبدأ البروتستانتي الثاني: (الخلاص بالإيمان وحده):

يُعدُّ هذا المبدأ أحد أخطر المبادئ التي ابتدعتها البروتستانتية، ففي مسيحية مارتن لوثر الجديدة يتقبل الربُّ الإنسانَ المؤمنَ لإيمانه بالمسيح فقط، وليس لتمام إيمانه، ولا لتفعيله بالأعمال الصالحة التي تستأهل الثواب(هندريكس، ٢٠١٤، ينظر:٦٢). فتح مارتن لوثر بوابة الشرّ البشري على مصراعيها، من دون أن يعي ذلك، عندما ربط الخلاص بالإيمان المجرد. وتأتي خطورة هذا المبدأ من حقيقة ما يترتب على التعامل به، من الطبيعة البشرية نفسها، التي تميل غالباً إلى التخلي عن بذل أي مجهود حسي مالم يفضِ إلى تحقيق مصلحة دنيوية مباشرة؛ فمارتن لوثر كان يرى أن ((الأعمال الصالحة لا تستأهل الثواب،

---

[٣٦] والحلولية الكمونية الواحدية: هي المذهب القائل بأن كل ما في الكون: (الإله، والإنسان، والطبيعة) مكوّن من جوهر واحد، مكتف بذاته. ومن ثَمَّ فإن العالم خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه لا تفرّق بين الإنسان وغيره من الكائنات. وفي إطار الحلولية الكمونية يمكن رد كل الظواهر، مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها، إلى مبدأ واحد كامن في العالم. ومن ثَمَّ، تتم تسوية الإنسان بالكائنات الطبيعية، وتُلغَى كل الثنائيات، وتسود وَحْدَة الوجود المتسمة بالواحدية الصارمة التي تنزع القداسة عن كل الأشياء، ومن ثَمَّ، تصبح كل الأمور نسبية (المسيري، ٢٠٠٢، ينظر: ٢/ ٤٦٧- ٤٦٨)

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

ومن ثَمَّ لا داعيَ لعمل الصالحات من أي نوع)) (هندريكس، ٢٠١٤: ٦٣). وهذا نص لساني أنثروبولوجي بالغ الخطورة، ينطلق من إغفال شديد لحقيقة قوة الغرائز البشرية، وهو بوابة شر واسعة، مرّت عبرها كل خطايا العالم الغربي، الفردية والجماعية، منذ انطلاقة عصر النهضة الغربية، وسعي البلدان الرأسمالية في تنافس السيطرة، والاستحواذ على العالم. ويبدو أن مارتن لوثر كان ساذجاً جدًّا، ليقول لإتباعه: ((الإيمان وحده يخلصكم، لا الأعمال الصالحة، لكن مع ذلك عليكم بعمل الصالحات؛ فهي لا تمنحكم الخلاص، لكن لا غنى عنها للعيش كمسيحيين)) (هندريكس، ٢٠١٤: ٦٢). إن هذا الخطاب لم يكن ليصدر إلا من واهم كبير، فالمسيحيون البروتستانت ليسوا ملائكة لكي يقال لهم بأن الإعمال الصالحة ليست مهمة، لكنكم ستقومون بها، ولا غنى لكم –بوصفكم مسيحيين– عن القيام بها. وبالنظر لاستمرار أثر رجال الدين المسيحي المهم في منح شرعية العمل لجمهور المؤمنين في ذلك الوقت، حتى بعد انطلاق حقبة عصر النهضة الغربية، فإن ما قام به مارتن لوثر وفّر في الأزمنة التالية له –وبتشريع ديني– راحة ضمير تامة لممارسة نمط العيش الرأسمالي التغالبي الذي شكّل الثقافة المُسيِّرة لحياة الشعوب الغربية، على المستوى الفردي والجماعي، فقد راح كثير من الأفراد الغربيين، وكذلك معظم حكومات بلدانهم بالتحرك الحياتي على أساس الاستناد إلى الغرائز الحسية، وحسابات الصراع الطبيعي من أجل البقاء. ويظن مارتن لوثر بسذاجة واضحة، وقناعة انطباعية أن ((الفصل بين الأعمال والإيمان مستحيل بقدر ما يستحيل الفصل بين الحرارة والنور اللذين ينبعثان من النار)) (هندريكس، ٢٠١٤: ٦٢)، وهذا الكلام يكاد تكون قطعة شعرية لمتصوف يعيش في عالم الأوهام، والانطباعات.

إن فكرة الشر خضعت لتذويب لوثري في بوتقة الإيمان البروتستانتي، الأمر الذي دفع بالإنسان الغربي المؤمن إلى خوض مجالات الحياة من دون رادع ثقافي، فلا يعود – بالنتيجة–ثمة شرّ، أو ذنب، أو خطيئة. ولو لم تكن قوة القانون الوضعي هي الرادع الفيزيائي، في المجتمعات الغربية الذي تحوّل بوجه من الوجوه إلى رادع ثقافي بمرور الزمن، لانجرفت الحياة العامة في البلاد الغربية إلى فوضى عارمة، على النحو الذي يتبدى لنا في سرديات رعاة البقر الهوليودية، التي تتمحور حول القوة المحضة، وسرعة إطلاق الرصاص. وهي الحال التي تتمظهر تمظهراً حرفيًّا –خارج الجغرافيا الغربية– في الممارسات الرأسمالية الغربية التي تجعل من بلدان العالم مادة استعمالية، و(أدغالاً) مباحة لعمليات نهب خيرات الشعوب، واستعباد الملايين من سكانها الضعفاء. وإذا كانت الرأسمالية بناءً طبقيًّا هرميًّا قائماً على التغالب، كما هو واقع فعلاً، فإن الإصلاح البروتستانتي، بحسب أطروحة عالم الاجتماع (ماكس فيبر)، يكون قد قام بفعل حاسم في تطور الرأسمالية، بخلقه نمطاً أدبيًّا

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

ثقافيًا متفقاً مع تطور تصرفات الاستثمارات والتوفير التي تشكل شرطا للتراكم الرأسمالي (بودون، وبوريكور،١٩٨٦، ينظر:١٦٩)، وهذا الفعل الحاسم هو تكريس مبدأ التغالب بين الناس. ويتميز ارتقاء الرأسمالية–وفاقاً لكارل ماركس– بتحرير المنتجين؛ (التجار، والصناعيين، وموجهي التجارة، والصناعة) من عدد من الإلزامات الثقافية، والاقتصادية، والسياسية (بودون، وبوريكور،١٩٨٦، ينظر(329 :، ما يعني –بحسب ماركس، وهو عارض للفكرة، وليس مؤيداً لها– أن (تحرير المنتجين) من الالتزام المسيحي التراحمي، أو من الإكراهات الثقافية، هو –في حقيقة الأمر– عين ما وفرته البروتستانتية المسيحية، وحركة الإصلاح الديني.

الحصيلة الثقافية البنيوية هي تحول المؤمنين المسيحيين البروتستانت من الأجيال التي تلت عصر مارتن لوثر، وبمرور الزمن –في عالم تقوده ثقافة السوق الرأسمالية– إلى متنافسين حقيقيين للاستحواذ على الفرص، وعلى مقدّرات العالم، ولم يعد مبدأ التسامح المسيحي ذا قيمة واقعية في الحياة اليومية على مستوى الأفراد في المجتمع البروتستانتي الواحد، ناهيك عن التعامل مع البلدان الأجنبية، بل أمسى–بمنظور الإنسان البروتستانتي– نشاطا سلبيًّا، رامزاً إلى ضعف الإنسان، وفشله في سيرورته الحياتية. لذا لجأت الحضارة الغربية –ضبطا لحياة الناس–إلى إفشاء سن القوانين الوضعية، فصار الإنجيل (تحفة فنية)، أو مجرد أيقونة رامزة، وقد يكون الصليب حل محله في أداء هذه المهمة السيميائية. وبذلك تنهض الفلسفة الإنسانية؛ (الهيومانزم) بمرجعيتها البروتستانتية، وهي طامحة لتغيير منظومات القيم الراتبة عبر العالم، ما يجعل منها خصماً ثقافيًّا خطيراً للأديان، وسائر المعتقدات البشرية. ولم يعد ثمة أثر لثقافة الذنوب والمعاصي، التي درجت عليها الديانات التقليدية، ولم يعد ثمة رادع أمام حصول الإنسان البروتستانتي على الملذات الحسية من أي نوع كان، فقد فاز بالانعتاق الكامل من منظومات القيم والأخلاق. وبلغ مستوى تأثير العقيدة البروتستانتية مبلغا كبيرا في أتباع التوجهات المسيحية الأخرى، فقد يكون الإنسان الغربي كاثوليكيًا في المعتقد، لكنه بروتستانتي في سلوكه اليومي، وحياته المعيشية، وأسلوب ممارسته الحرية الفردية. أما في البلاد العربية فقد خطت البروتستانتية خطوات هائلة –منذ أكثر من مئة عام– متغلغلة في القوانين، والتشريعات، والعلاقات العامة، والحياة اليومية للناس، لأن الدول العربية الحديثة كانت تأسست براعٍ إنكليزي بروتستانتي، أو راعٍ فرنسي لا يلقي بالاً للدين أصلاً، من مثل سايكس الإنكليزي، وبيكو الفرنسي. أمّا على المستوى الدولي فتستطيع الولايات المتحدة الأمريكية –في عصرها الراهن–أن تغزو أي بلد من بلدان العالم

الثالث، وليس ثمة رادع تراحمي متحدر من الديانة المسيحية يمنعها من ذلك، أما لوائح الأمم المتحدة البائسة أصلاً فربما هي آخر ما يجري الالتفات إليه في شأن كهذا.

يتعلق الأمر –من منظور لساني أنثروبولوجي– بتغير عميق جدًّا، ذي طبيعة بنيويّة في مفهوم الخلاص المسيحي المرتبط بالسيد المسيح (عليه السلام)، فقد تحوّل إلى عمل فرديّ يكسبه الإنسان من دون توسط أحد. والكنيسة نفسها لا يمكنها أن تؤكد للمؤمن أنه –إن نفذ التعاليم الدينية– سينال رضا الخالق. ولا يملك القساوسة القدرة على مساعدة جمهور المؤمنين، أمّا الشعائر الدينية فلا جدوى من أدائها، بل إن الخالق نفسه –بحسب الفهم البروتستانتي–غير قادر على إدخال الطمأنينة إلى قلب المؤمن (المسيري، ٢٠٠٢، ينظر: ١١٠/٢). وفي حالة عقائدية كهذه، ماذا يمكن أن يتبقى لأي مؤمن صالح من إيمان، أو صلاح، بالمعنى المتوارث الذي درجت عليه المسيحية نفسها عبر العصور، فليس ثمة سوى تكريس لثقافة (الخلاص خارج الكنيسة)، بل يمكننا القول إن الإنسان البروتستانتي أصبح هو نفسه الكنيسة، فهو نفسه المخلِّص المخلَّص؛ هو نفسه (العبد والمعبود والمعبد) (المسيري، ٢٠٠٢، ينظر: ١١٠/٢).

ما لم يكن مارتن لوثر ليدركه أنَّ البروتستانتية فتحت الطريق نحو عالم مُعدَّل إيمانيًّا، ومُعَدًّا ليكون ساحة للصراعات البشرية، فما دام إيمان الإنسان المسيحي البروتستانتي غير منوط بفعل الخير، فإن قوته البشرانية الدنيوية ستنطلق من عقالها لتقرر شكل سيرورته في معترك الحياة، لتمسي ((المصلحة الذاتية (المادية) مصدر الأخلاق)) (المسيري، ٢٠٠٢ : 2/107)، وهي التي تضفي الشرعية على وسائله لتحقق له ما يريد في عالم رأسمالي ملتاث إلى حد التخمة بقوة العلوم الطبيعية، من دون أن يشعر بأية أزمة أخلاقية، لأن إيمانه المجرد بالمسيح كافٍ لتحقيق التوازن الوجودي (الأنطولوجي)، والفرداني النفسي، فليس ثمة قلقٌ من نوع ما، أو شيءٌ من عذاب الضمير الإنساني، عقب أي صراع محموم على الفوز بمكسب دنيوي، تتحقق على إثره المصلحة الشخصية؛ يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: ((حررت الرؤية البروتستانتية النزوع النفسي إلى تحصيل الخيرات من قيود الأخلاق التقليدية، ومن جهة أخرى تمكنت هذه الرؤية من كسر القيود التي تحول دون اكتساب الخيرات الدنيوية، ليس فقط بجعل هذا الاكتساب مشروعاً، بل أيضا بربطه مباشرة بإرادة الإله)) (المسيري، ٢٠٠٢: ١٠٨/٢)، فإرادة (الإله البروتستانتي) حاضرة في دعم فعل (الإنسان البروتستانتي) التنافسي من أجل تحصيل المكاسب، وهذه ثقافة مخالفة لتعاليم الديانات البشرية المعروفة كافة، بل مخالفة للمسيحية نفسها بنسختيها؛ الكاثوليكية، والأرثوذوكسية، ما يعني أن ثمة نزوعاً شديداً نحو تخليق متواصل لرأسمالية متوحشة لا

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

تعرف الرحمة الاقتصادية بين الناس، بل تعُدّها منقصة في مسيرة البشرية نحو الارتقاء والحصول على المركز الأول في كل شيء. فصارت الحياة الدنيا حلبة خوص صراعات السيطرة والتفوق والاستحواذ، ولا شيء يحدّ الإنسان البروتستانتي –على مستوى الكوكب– سوى توازنات القوى العالمية الدولية الكبرى، ولا شيء يحده –على مستوى المجتمعات المحلية–سوى القوانين الوضعية التي لابد منها للسيطرة على الغرائز الطبيعية. إن العقيدة البروتستانتية فتحت المجال واسعا للحريات الشخصية، بـ(تحرير)ها الإنسان الغربي من قيود الكنيسة الكاثوليكية المادية والمعنوية، مقابل تخليق، أو تثبيت ثقافة القدرة والاستطاعة، وتحصيل المكاسب، المتسببة بالنتيجة في تخليق المزيد من (الوحوش البشرية) المتصارعة على كل شيء، التي تريد كلها التحول إلى آلهة متوحشة، ولا يمكن أن يكون الإنسان وحشاً إلا إذا أفرط في الحصول على القوة الفائضة عن الحاجة، فالوحوش الضعيفة ليست وحوشاً، بل دمى يتسلى بها الأطفال، أو هي ألعوبة تتسلى بها الكائنات القوية في الطبيعة.

لم تكن الأمور لتبقى –بعد مارتن لوثر–على حالها، فما بدا تحريرا للإنسان من قيود التخلف والقنانة، أو الاستعباد الكنسي، صار –بجدل التاريخ الغربي–تحريرا للوحش في الإنسان، بل تحريرا للشيطان في الإنسان، من القيود الإلهية، ومن إكراهات، أو ضغوطات المسيح التقليدي؛ (الكلاسيكي)، ولمّا كان هذا التحرير قد جرى بشكل موازٍ للتقدم العلمي التكنولوجي الهائل، فليس –إذن–من حرج أخلاقي في أن يصطاد الرجل الغربي بقدراته العلمية، والعسكرية ملايين البشر من أفريقيا ليستعبدهم في أمريكا وأوروبا، وأن تلقى (القنبلة الذرية) على اليابان، وأن تتحول بلدان العالم الثالث إلى مادة استعمالية، لأي سبب تحتاجه القوى القادرة على تحريك الحدث في الولايات المتحدة، حتى لو كان احتلال بلد ما لا يعدو كونه مجرد وسيلة للفوز بانتخابات الرئاسة، إذ لا مانع أخلاقيًّا (مسيحيًّا بروتستانتيًّا) يحول دون ذلك، فالأدغال؛ (بلدان العالم الثالث) غير جديرة بتطبيق أخلاقيات الجنة البروتستانتية، وهذا كله منافٍ لمنظومة التسامح التي كان يدّعي الإنسان المسيحي التقليدي امتلاكها بفخر عبر الأزمنة. وكلما مرَّ الوقت أحدث التثقيفُ البروتستانتي تقويضاً يكاد يكون تامًّا للعقيدة المسيحية التقليدية، وتحوّلَ خطُّ الثقافة الغربية بشكل متسارع نحو مزيد من المادية العلمانية المتوحشة، التي هي –من منظور جدلي ديالكتيكي–الناتج الطبيعي المترتب على الدعوة البروتستانتية إلى مبدئي؛ التجسد، والإيمان وحده؛ يقول مايكل ألين جيلسبي: ((لا يمكن لأحد أن يستبعدَ الإلهَ دون أن يحوّلَ الإنسانَ إلى وحش)) (جيلسبي،.(30 :2019

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

إنَّ التاريخ في الحضارة الغربية تاريخ حقيقي، بمعنى صيرورة متواصلة، أو جدل أحداث، أو (ديالكتيك)، وليس سيرورة، أو بنى ثقافية تتكرر عبر الزمن، كما هي الحال في كثير من البلدان الشرقية، وعلى أساس كهذا لم تبقَ البروتستانتية قطّ، ولن تبقى أبداً، كما أرادت لها أوهام القس مارتن لوثر، فقد شرعت الحضارة الغربية بالتحول السريع نحو السيطرة المادية الكاملة على العالم. وظلت–وهي في طريقها الطويل لتفعل ذلك– مستندةً إلى تركيز القوة الفيزيائية، التي لا تحتمل التفريط بها، ولا تحتمل ترك استعمالها رحمةً بموجودات العالم الضعيفة؛ (شعوباً وأفراداً)، تلك الموجودات البائسة التي تحاول مداراة ضعفها، وأداءاتها السلبية بادعاءات الأُخوّة، والتعاون الإنساني. ولا يقبل المسيحي الغربي البروتستانتي (المعياري) الضعفاء حتى من البيض، ولا يشعر بقبول حقيقي للمسيحيين الشرقيين، والسلافيين، واللاتينيين، والأفارقة، ناهيك عن العرب، والمسلمين بطوائفهم المتصارعة كافة، لأن قبولا كهذا –كما يرى البروتستانتي–منافٍ للطبيعة، وفكرٌ قديم، منبثق عن فلسفات مثالية، أو عن عقائد أرثوذوكسية، وكاثوليكية مكبلة بخرافات الوصايا العشر التي عفا الدهر عليها، أو عفا عليها جدل التاريخ الغربي البروتستانتي، في الحقبة الراهنة من تطور الحضارة الغربية، ولم يعد الإنسان الغربي (المعياري) قادرا على الإيمان بها. أما على مستوى (الدراما السينمائية) الهوليودية، التي هي محل التطبيق من هذه الدراسة، فإذا أظهر البطل الأسطوري بعضاً من الرحمة فلضرورة تجارية تسويقية، من ضرورات (شباك التذاكر) كما يُقال، وهي لا بد منها لإرضاء جمهور السينما المتعدد الأعراق، فالجنبة التجارية الرأسمالية لا يمكن التفريط بها.

لا تحتاج العقيدة البروتستانتية شيئاً سوى المزيد من تراكم القوة المادية، والتطور العلمي التكنولوجي الفائق لكي ينطلق –بها، ومن أجلها– ما بقي من أسوأ شرورها لإخضاع العالم، وتكريس السيطرة المادية والمعنوية في أرجاء كوكب الأرض، وربما في العالم الخارجي أيضاً، عندما يأتي عصر السفر إلى المريخ، لكي تتحول من مبدأ الاستمكان في الكوكب إلى مبدأ الاستمكان في العالم الكوني، وهو ما توحي به سرديات هوليودية أسطورية، مبشرة بنمط قادم من حياة كوكبية معولمة على مستوى المجموعة الشمسية، وربما المجرة، أو المجرات، فالقضية قضية تقدم علمي تكنولوجي خالص ليس أكثر، أمّا (الغطاء الأخلاقي)، أو الثقافي فقد أمسى جاهزاً جهوزاً بروتستانتيًّا خالصاً إلى أقصى حدود ما تمنحه الذرائعية النفعية للجنس الأبيض من أجل أن يحكم قبضته على مصير الحياة الدنيا برمتها. وفي حال وصول (وكالة ناسا) الحقيقي، أو الإيهامي إلى المريخ، ستبدأ حقبة تحوّل (الإمبريالية الأمريكية البروتستانتية الأرضية) إلى (إمبريالية العوالم المتعددة)، وهو ما تمهد له

مصطلحات لسانية أنثروبولوجية هوليودية خطيرة، من مثل: (اتحاد سكان المجرة)، و(الجندي الكوني)، و(الفضائيون).

يتمظهر –مع مرور الوقت في العصر الراهن من عمر الحضارة الغربية–تحوّل الخط الثقافي ذي الجذور المسيحية نحو الالتياث بمزيد من (المادية العلمانية)، التي هي المساوق الطبيعي للوضعية المنطقية، النافية للبعد الروحي في العالم، والحليف المعرفي (الإبستيمولوجي) لدعوة البروتستانتية إلى مبدئي؛ التجسد، والإيمان وحده؛ يقول د، عبد الوهاب المسيري: ((لنا أيضاً أن نلاحظ أن البروتستانتية ظهرت في المرحلة التي كانت تتحول فيها الحلولية الواحدية الروحية في الغرب إلى الحلولية الواحدية المادية (العلمانية))) (المسيري، ٢٠٠٢: ١٠٨/٢)، الأمر الذي فتح بوابات الجحيم الأرضي على سكان العالم، لتكون الأحداث القادمة في القرن الحالي؛ الحادي والعشرين، مصاديق محاولات الثقافة الأمريكية البروتستانتية خوضَ معركتها الأخيرة لإنهاء الوجود الفعلي للثقافات البشرية التقليدية.

الحقل الثاني: الداروينيّة الاجتماعيّة والتحضير لحقبة ما بعد الإنسان

الداروينية الاجتماعية: فلسفة مادية ترى أن القوانين التي تسري في عالم الحيوان والطبيعة، كالصراع، والمنافسة، والبقاء للأصلح هي نفسها التي تسري في عالم الإنسان، والمجتمع(عثمان، ٢٠٠١، ينظر: ١٣٧). وتمثل (الداروينية الاجتماعية) تطبيقاً للمبادئ التطورية التي وضع خطوطها (العلميّة) العريضة عالمُ التاريخ الطبيعي البريطاني تشارلز داروين في كتابه (أصل الأنواع)، الصادر في العام (١٨٥٩). وقد بدأ مصطلح (الداروينية) بالتشكل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (عثمان، ٢٠٠١، ينظر: ١٨٧) و(حسيبة، ٢٠٠٩، ينظر: ٢١٨–٢٢٠).

إن موجودات الكون بأسرها –بحسب تشارلز داروين–سلسلة كينونات متواصلة، تسير في حالةٍ من الحركة الدائبة من المكانة السفلى؛ (المتدنية) في الوجود الطبيعي، إلى المكانة العليا؛ (الراقية)، وما الإنسان –والكلام لداروين– إلا حلقة واحدة من حلقات هذه السلسلة، وقد يكون هو الحلقة الأكثر رقيًّا، لكنه –على الرغم من ذلك– ليس الحلقة الأخيرة. ويرى داروين أن تقدُّم الأنواع الحية يعتمد على الصراع من أجل البقاء الذي ينتصر فيه الأصلح، والمَعْنيّ به؛ (الأقوى) (المسيري، ٢٠٠٢، ينظر: ٦٣/٢)، فصلاح الأنواع متمحض للقوة المادية الطبيعية، ولا علاقة له بالصلاح الأخلاقي. وليس ثمة مكان للضعفاء في عالم طبيعي، مادي، يسعى الأقوياء فيه إلى التفوق، والسيطرة، والاستحواذ. وتكمن في مقولة: (إنْ هو إلّا إحدى هذه الحلقات)، ومقولة (لكنه ليس الحلقة الأخيرة) خطورة عظيمة، تتحرك

–على وفقها– القوى المُنتِجة للأحداث الكبرى في العالم، وتكمن فيها أيضاً النية العلمية الأحيائية (البيولوجية)، والثقافية، للانتقال بالعالم إلى (مرحلة ما بعد الإنسان)، التي ظل يبشّر بها مفكرون، وعلماء أحيائيون غربيون، حتى كأنّ تَحَقُّق تلك (البشارة) لم يعد سوى مسألة وقت ليس أكثر، فهو مرهون بتسارع التطور العلمي الأحيائي، الذي يسبق –في العادة– أيّ تطور على المستوى السياسي، فما يقوم به –في الحضارة الغربية–الفلاسفة، وعلماء الهندسة الوراثية، والتكنولوجيا، يشكل النشاط؛ الفكري، والعلمي، الممهدين، والدافعين، والمحركين لإحداث تغيّرات جذريّة هائلة على مستوى الكنيسة، أو الدين المسيحي، والبنى الاجتماعية، وأنماط تفكير قادة العمل السياسي.

أول من طرح الداروينية الاجتماعية –على المستوى الإنساني–الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر، الذي اعتمد المنهج التجريبي وسيلة لتسويغ، أو شرعنة فرضياته الاجتماعية. إن القطب الذي تدور عليه فلسفة سبنسر هو إن العالم جارٍ على سنة الارتقاء من البسيط إلى المركّب، ومن غير المحدد إلى المحدد، ومن المتماثل إلى المتنوع[٣٧]، وأن العالم يسير من حسَن إلى أحسن، وكان يرى–كغيره من كبار الفلاسفة الهوبزيين– أن أقوم طريقة للصلاح والارتقاء الاجتماعي هي الاهتداء بسراج الطبيعة، واتباع سننها (سبنسر، ينظر:٧)[٣٨]. كما يرى سبنسر أن الفرد، وليس الجماعة، وحدة البحث التي ترتقي، وأن الارتقاء يحدث بالانتخاب الطبيعي، وأنه ظاهرة اجتماعية، فضلاً عن كونه ظاهرة أحيائية (بيولوجية) (حسيبة، ٢٠٠٩، ينظر: ٢٢٠). ومن مبادئ نظرية سبنسر الفلسفية في النشوء والارتقاء مبدأ وراثة الصفات المكتسبة (طرابيشي، ٢٠٠٦، ينظر:311 ، ما يعني أن التطور الأحيائي (البيولوجي) يجري نقله للأجيال اللاحقة، فذرية النساء الضعيفات مثلا تكون واهنة ضعيفة بحيث تنقرض بعد جيلين، أو ثلاثة (سبنسر، ينظر: ١٠٧). ويرى هربرت سبنسر أن الخير الحقيقي –إذا نحّينا كل الهذر الأخلاقي كما يرى–يكمن في إحداث التواؤم بين الكائن الحي وشروط الطبيعة(برهييه، ١٩٨٧، ينظر: ٢٨/٧).

كانت أفكار هربرت سبنسر الفلسفية الاجتماعية سابقة لنشر تشارلز داروين كتابه (أصل الأنواع) (برهييه، ١٩٨٧، ينظر: ٢٤/٧) و(حسيبة، ٢٠٠٩، ينظر: ٢٢٠)، لكنه لجأ إلى استثمار أطروحات (الكتاب) من أجل تدعيم بنائه الفكري الفلسفي، وتحقيق هدفه

---

[٣٧] كالتطور من الخلايا البسيطة إلى الكائنات الحية المعقدة، وهذا على وفق معتقد أصحاب نظرية التطور.

[٣٨] في عبارة (ومن غير المحدد إلى المحدد، ومن المتماثل إلى المتنوع) تظهر بشكل مباشر الفكرة التي تمثل موضوعة التطور الداورينية من الخلية إلى الكائنات الحية المعقدة، وهي تشير بالنتيجة إلى تنوع الكائنات الحية ضمن الجنس الواحد، فكما أن الإنسان الأبيض غير الأسود، فكذلك سيفضي التطور الطبيعي إلى تعدد الجنس الواحد غير المحدد إلى أجناس منفصلة محددة. ويمكن ملاحظة الخطورة المذهلة لمثل هذا التفكير.

المتمثل في التأليف بين علم الاجتماع ومناهج العلوم الطبيعية، ما يعني تثبيت فكرة استناد قوة الفكر الغربي الحديث، والمعاصر للمنجز العلمي التجريبي المختبري، والوضعية المنطقية، حتى لو كان ذلك المنجز (نظرية تطور أحيائي) غير مقطوع بصحتها. وبالبناء على ما سبق يكون عمل تشارلز داروين التطوري معنيًّا بـ(عالم الطبيعة)، أي بالواقع المادي، وعمل هربرت سبنسر التطوري معنيًّا بالواقع الاجتماعي (إدجار و جويك، ٢٠١٤، ينظر: ٢٩٣). ويرى بعض دارسي الفلسفة الغربيين أن أفكار هربرت سبنسر (التطورية) غيّرت بالتضافر مع أفكار داروين روح الفلسفة، وكان لها أعظم الأثر في إنكلترا، وفي سائر أرجاء العالم (برهييه، ١٩٨٧: ٢٣/٧)، لتمسي الداروينية الاجتماعية القوة الدافعة الأكثر تأثيرا في تسيير عجلة التاريخ الغربي في المرحلة الراهنة، المفتوحة على مستقبل مجهول النهايات.

توصف الداروينية الاجتماعية بأنها ((فلسفة واحديّة ماديّة كمونيّة، تنكر أيّة مرجعيّة غير ماديّة مفارقة، وتستبعد الخالق من المنظومة المعرفيّة والأخلاقيّة، وتَردُّ العالم بأسره إلى مبدأ ماديٍّ واحد كامن في المادّة)) (المسيري، ٢٠٠٢: ٦٢/٢)، ما يعني أنها تمنح السيطرة في الكون لقوانين الطبيعة، بغض النظر عن الإيمان، والإلحاد، اللذين يجري تذويبهما في هذه الفلسفة على وفق (وحدة الوجود المادية)، فلا يعود ثمة خلاف حقيقي بينهما، أو وجود لأي منهما، فتلك (ثنائيةٌ) أخرى في طريقها إلى التفكك، والزوال. ولما كانت الجماعات البشرية خاضعة –من منظور داروينـي اجتماعي–لقوانين الانتخاب الطبيعي التي تتولى تقرير مصير الحيوانات، والنباتات، وسائر أحياء الطبيعة، فإن الجماعات البشرية الضعيفة –بهذا المعيار الداروينـي– تتلاشى بشكل تدريجي، وتختفي معها ثقافاتها، وحضاراتها، بينما تستمر الجماعة البشرية القوية بالبقاء والتطور، ما يعني غياباً واقعيًّا لأي استمرار صلب، على المستويين المادي والمعنوي لمبدأ وجود المجتمعات البشرية الحداثية الحديثة، وتكريساً حقيقيًّا للمستوى التغالبي الأنثروبولوجي من الحياة البشرية، المرتبط بالبنى الغرائزية التي لا تخضع –كما هي العادة–لقوانين الدولة المدنية.

تتبدى الداروينية الاجتماعية، بهذا المنحى التحليلي، نموذجا معرفيًّا (إبستيمولوجيًّا) مرتفع الخطورة، يتمكن بها العقلُ الغربي النافي للحداثة الديكارتية من بلوغ مستويات تشكلاته القصوى في مراحل توحّشه المادي المتواصل، وتعد الوجه الأكثر صلابة للصيرورة (الهيغلية) الكامنة في الأشياء، التي يزخر بها الوجود ببعده الطبيعي المحسوس، فـ((كل ما يظهر إلى هذا الوجود اعتماداً على عملية ديالكتيكية لا يكتسب حقيقته وقيمته إلا بوصفه لحظة عابرة (متلاشية)، فهو باقٍ كعنصر متكامل، وإن كانت حقيقته المنفصلة تتعرض

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

للتلاشي. إنّ على كل وجود متناهٍ أن يتلاشى، حتى يفسح مكاناً لأشكال جديدة أكثر اتصافاً بالكمال)) (كاسيرر، ١٩٧٥: ٣٣٦-٣٣٧)، والبحث عن الاتصاف بالكمال للأشكال الجديدة هو التعبير الجميل التصالحي؛ القابل للتسويق الذرائعي لكل عملية تطهير عرقي، وثقافي قادمة، تجريها الجماعات البشرية البروتستانتية المتفوقة، بقصد تحويل جماعات الخصوم الضعيفة إلى مادة استعمالية لها وحدها، لأنها تملك -مستندة إلى القوة المادية-حقّ تصنيف الحشود البشرية في سلم الرقي، والانتخاب الطبيعي.

كان الخطّ الفلسفي الوجودي (الأنطولوجي) الديكارتي هو السائد في الحضارة الغربية، وكان (الإله القدير المطلق) الحاضرَ المتحكم بمحاولات الفلسفة الغربية لفهم العالم؛ يقول لوك فيري: ((في فلسفة القرن السابع عشر، كان الإنسان يفكر انطلاقاً من الله، وإذا أمكننا القول (بعده). لقد كان هناك أولاً الخالق، الكائن المطلق واللامتناهي؛ وبالعلاقة معه كان الكائن البشري يعرف نفسه كنقصٍ وتناهٍ...إن هذا المنظور، الذي كان الله يأتي فيه منطقيًّا، وأخلاقيًّا، وميتافيزيقيًّا قبل الإنسان، كان لايزال يتوافق مع اللاهوتي الأخلاقي ومع التأسيس الديني للأخلاق)) (فيري، ٢٠٠٢: ٤٢)، لكن (النفي) الفلسفي، والاجتماعي، والسياسي الذي سمحت (البروتستانتية) بانفلاته منذ اللحظة اللوثرية من قيود اللاهوت الأخلاقي المسيحي الكاثوليكي، والأرثوذوكسي سرعان ما ربط -بالنتيجة- تسارع نشأة العالم الديمقراطي على الصُّعُد كافة بالقطيعة الأساسية، بل النهائية مع الدين المسيحي بشكله التقليدي، التي تطورت إلى ترويج ثقافة (موت الإله)، وتجلى ذلك بوضوح شديد، أو بصيغة خطابية مباشرة في النصوص اللسانية الأنثروبولوجية النيتشوية، المتحدرة عن السلالة الهوبزية، فثمة تراجع متواصل للعقلانية الديكارتية، التي لم تخلُ من البعد الإيماني، لصالح العقلانية الهوبزية المادية التي ترجع جميع الأشياء إلى وجود طبيعي خالص، خاضع لقوانين السببية المادية البحتة (جيلسبي، ٢٠١٩، ينظر: ٣٠)، ليمسي رينيه ديكارت -على وفق ما يراه فريدريك نيتشه- فيلسوفاً حداثيًّا سطحيًّا (نيتشه، ٢٠٠٣، ينظر: ١٣٦)، منتهي الصلاحية، وغير قادر على البقاء، أو غير مقبول له أن يبقى على قيد الفكر الغربي في لحظة تحولاته الجدلية التاريخية، نحو حقبة ما بعد الحداثة، وبذلك يتأكد -مرة بعد أخرى- تسلط النزعة التجريبية، والوضعية المنطقية الضيقة المنكرة للتجاوز، المهتمة بالحقائق الحسية، التي لا يتورع وجهها الذرائعي -على الرغم من نفيها للغيب-عن استثمار (سرديات أسطورية) في معركة الفوز بتقرير شكل العالم؛ يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: ((لعل الفلسفة العلمانية الشاملة الأساسية، أي الداروينية الاجتماعية هي تعبير عن هذا التعايش والترابط بين

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

العقلانية واللاعقلانية المادية)) (المسيري، ٢٠٠٧: ٣٦)، وهذا التعايش هو الوجه الأكثر نفعية في (العقل الفلسفي المؤسسي) للحضارة الأمريكية.

يعلن نيتشه –نظريًّا في أقل تقدير، وبلغة خطابية فجّة، ومباشرة– انطلاقة مرحلة ما بعد الإنسان؛ المرحلة التي تلوح إرهاصاتها على صعيد الأفق الفلسفي الأنثروبولوجي، والهندسة الوراثية، والذكاء الصناعي؛ يقول نيتشه: ((إنني أعلّمكم الإنسانَ الأعلى. الإنسانُ شيء لا بد من تجاوزه. فما الذي فعلتم كي تتجاوزوه؟))(نيتشه، ٢٠٠٧: ٤٠)، فهذه دعوة لتجاوز مرحلة الإنسان إلى (الإنسان الأعلى)، أو (السوبرمان) بحسب المتداول في اللسانيات الهوليودية، ويقول نيتشه: ((كل الكائنات ظلت حتى الساعة تبدع أشياء فوق منزلتها؛ وأنتم أتريدون أن تكونوا حركة الجزر في هذا الدفق العظيم فتفضّلوا العودة إلى منزلة الحيوان على مجاوزة الإنسان؟))(نيتشه، ٢٠٠٧: ٤٠–٤١)، وهذه دعوة تحفيزية عن طريق تسقيط الركون إلى التوقف عند الحالة الراهنة للكائن البشري، ويقول نيتشه: ((ما القرد بالنسبة للإنسان؟ أضحوكة، أو موضوع خجل أليم. كذا يجب أن يكون الإنسان بالنسبة للإنسان الأعلى: أضحوكة، أو موضوع خجل أليم. لقد سلكتم الطريق الطويلة من الدودة إلى الإنسان لكنكم مازلتم تحملون الكثير من الدودة في داخلكم. كنتم قِرَدة ذات يوم، وإلى الآن ما يزال الإنسان أكثر قرديّة من أي قرد)) (نيتشه، ٢٠٠٧: ٤١–٤٢)، وهذه دعوة تحفيزية أخرى تجري على غرار ما سبقها، لتأكد دعوة نيتشه الصريحة إلى داروينية الانتخاب الطبيعي، بل هي دعوة للانتخاب الصناعي، من أجل التحول من الإنسان (الأضحوكة)، إلى (الإنسان الأعلى).

إن نصوص نيشته الداروينية تطيح بدعائم العقلانية الديكارتية، وصنيعتها الحداثة الغربية التي –على الرغم من مساوئها الكثيرة– أبقت على شيء من احترام القيمة الإنسانية، بأن منحتها صفة التعالي على التاريخ. بينما تسعى النصوص النيتشوية المفزعة إلى هدم منظومات القيم، وإنتاج فهم جديد للإنسان وللعالم، على وفق الداروينية الاجتماعية، وما يتساوق معها من تطور علمي في الهندسة الوراثية، ففيلسوف التحولات الكارثية الألماني قد تلقف مقولتي: (الانتخاب الطبيعي)، و(الصراع من أجل البقاء) لتتحولا على يديه إلى دعوة صريحة للعمل على تجاوز الجنس البشري، وهي الدعوة المتضمنة صراحاً القضاءَ المبرم النهائي على منظومة (أخلاق العبيد؛ المسيحية)، ليدعو من وراء ذلك إلى إطلاق منظومة (أخلاق الإنسان الأعلى؛ السوبرمان)، العالمية الجديدة، التي ربما لا تحمل من تراث الأخلاق البشرية الراهنة سوى أصوات؛ أو (فونيمات) المصطلح (عثمان، ٢٠٠١، ينظر:١٢٢).

إن اللحظة النيتشوية لحظة فارقة في تاريخ الفكر الغربي (المسيري، ٢٠٠٢: ١١٤/٢)[٣٩]، بل هي اللحظة الهوبزية المتقدمة، التي انبثقت لتكون مؤذنة باختمار خطير سيتشكل العالم على وفقه في العقود، أو القرون التالية لها، مبدية إرهاصات مرحلة (ما بعد الكائن البشري)؛ المحكوم إنطلاق تمظهراتها بعامل الوقت المتاح لحصول التطور الكافي في الهندسة الوراثية، والذكاء الصناعي، ما يعني أن تغييراً بنيويًّا عميقاً كان يتسارع في النشاط المخفي، والمعلن، من ساحة فكر الحضارة الغربية البروتستانتية، لتُكمل –بعد ذلك– انقضاضها على الحضارات البشرية الأخرى في العالم، بالقوة الأمريكية المادية، والمعنوية، معلنة نهاية حقبة (الإيديولوجيات الكبرى) التي ((مثلت العامل الملزم الضروري للحداثة، كما كان الدين بالنسبة إلى المجتمعات ما قبل الصناعية))(باومان و بوردوني، ٢٠١٨: ٩١)، الأمر الذي يفضي إلى الإعلان النهائي عن موت حقبة الحداثة الديكارتية، ومتعلقاتها الثقافية والمدنية، ولعله لا توجد –بالبناء على ذلك–فلسفة أثرت في عصرنا الحديث كما تفعل الفلسفة الداروينية(المسيري، ٢٠٠٧: ١٠٠)، التي هي الفلسفة الوحيدة التي تجعل هدفها الصريح –بخلاف الفلسفات الأخرى–القضاء على الإنسان.

يتبدى لنا من سيرورة البحث أن الحقليين اللسانيين الأنثروبولوجيين؛ (العقيدة البروتستانتية والرؤية الوجودية في فهم العالم)، و(الداروينية الاجتماعية والتحضير لحقبة ما بعد الإنسان)، قد خَدَما في المآلات النهائية للجدل الفلسفي الأنثروبولوجي، بقوة منقطعة النظير، تَسيّدَ (السلالة الهوبزية) المتسارع على العقل الغربي، على حساب (السلالة الديكارتية)، السطحية نيتشويًّا، التي قد تكون الآن–كما رأى البحث– في لحظتها التاريخية الأخيرة، فقد وقع (إنسان ديكارت) الغربي –المتميز عن الطبيعة، والمتحرر من قوانينها– في قبضة الصيرورة نفسها، وفي جدل الطبيعة المادية[٤٠]. ولعل الصيرورة الجدلية نفسها ستكون قاصرة عن وصف ما سيحصل عندما تتسيد ثقافة الانتخاب الصناعي، على حساب ثقافة الانتخاب الطبيعي. فـ(السلالة الهوبزية) تبشر بعالم (ما بعد الإنسان)، وتمعن–بعزم وتصميم مستندين إلى القوة المادية، والعلمية– في تصنيع خراب البنى الثقافية الفاعلة في الحضارات البشرية، ويسعى أتباعها؛ من المفكرين اللسانيين الأنثروبولوجيين، وعلماء الهندسة الوراثية، والذكاء الصناعي سعياً حثيثاً لتهيئة (الكائن البشري) لعوالم طبيعية؛ (فيزيقية) قادمة، مكتظة

[٣٩] ويقول الأستاذ علي مصباح مترجم كتاب هكذا تكلم زرادشت: ((الحدث النيتشوي كان حدثا كارثيا داخل تاريخ الفلسفة)) (نيتشه، ٢٠٠٧: ٩).

[٤٠] يقول د. المسيري: ((في إطار المرجعية المادية الكامنة، فإن الإنسان كائن طبيعي، وليس مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي، وإنما هو مستوعب تماما فيه، ويسقط تماما في قبضة الصيرورة، فتسقط المرجعية الإنسانية، وتصبح (الطبيعة؛ المادة) هي المرجعية الوحيدة النهائية)) (المسيري، ٢٠٠٧: ٣٨). وسنستعمل المصطلح (السقوط في قبضة الصيرورة) في سائر صفحات الدراسة بدون توثيق اكتفاءً بتوثيقه في هذا الموضع.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

بالآلهة المتصارعة على كل شيء. هكذا يبدو الأمر من حيث المتوقع النظري، على وفق قراءة استشرافية للوقائع الحسية والمعنوية البروتستانتية؛ الممعنة في تحطيم العلاقة التاريخية بين المعنى والعلامة في ثنائية (الحق والباطل)، فإذا أفرزت العقلانيةُ المادية فكرَ حركة الاستنارة، والوضعية المنطقية، والكل المادي المتجارز للإنسان، فقد أفرزت اللاعقلانيةُ الماديةُ النيتشويةَ، والوجوديةَ، والظاهراتية، وما بعد الحداثة. وإذا كانت العقلانية المادية تربط بين التجريب والعقلانية، فإن اللاعقلانية المادية تفصل بينهما، فيتم التجريب دون ضابط قيمي أخلاقي، ودون إطار مرجعي ثقافي، رافضة (الكليات العقلية)، وملتصقة التصاقاً مطلقا بتحولات المادة المحضة، والعالم الحسي(المسيري، ٢٠٠٧، ينظر: ٣٥).[٤١]

سادساً: الجذور الهوبزية اللسانية الأنثروبولوجية لمرحلة ما بعد الإنسان

يستطيع الباحث الناظر إلى الصورة التاريخية الكلية للعالم بقدر الإمكان أن يُلقي قدراً من جرم (الخطيئة الثقافية) المؤسسة للخراب القادم، على ظاهرة الإصلاح اللوثرية، وما فعلته من تغيير بنيوي في عقول الشعوب الغربية المسيحية، وذلك على الرغم من النوايا الحسنة التي جعلت القس الألماني راغباً في البحث عن سُبُل تحرير الإنسان المسيحي من استعباد الكنيسة الكاثوليكية. فذلك القس كان متسماً –كما يظهر– بالتدني الواضح في مستوى الرؤية المعرفية، وبالغياب الكامل للبصيرة الاستشرافية. ويمكن للباحث كذلك أن يلقى قدراً من جرم (الخطيئة الثقافية) على الفلسفة الديكارتية الحداثية، التي هي فلسفة مثالية، غير منقطعة عن عالم المثال، على الرغم مما فيها من زخم إنساني أنثروبولوجي، ما يعني أنها لم تكن فلسفة ساعية للتبشير بعالم ما بعد الإنسان، العالم القادم الذي تتحول فيه (الكائنات البشرية) إلى آلهة متصارعة على كل شيء خارج نطاق منظومات القيم الإنسانية المعهودة. إن المفكريْن كليهما؛ مارتن لوثر، ورينيه ديكارت كانا باحثيْن عن خلاص الإنسان الغربي الأوربي من أزمنة متتابعة من الظلم، والقهر، والاضطهاد الديني، والثقافي، والسياسي. ولهذا قد يكون من الصعب إلقاء قدر كبير من جرم (الخطيئة الثقافية) التي تسببت في (توحش الإنسان الغربي) عليهما، أو على خطِّهما الفلسفي الأنثروبولوجي، لكنهما ليسا منزهيْن بالكامل، ولا يمكن تبرئة فعلهما –بغض النظر عن النوايا الحسنة– عمّا لحق بالجنس البشري من الخسائر الفادحة التي تمخض عنها عصر النهضة الغربية[٤٢]، لأن

---

[٤١] وعلى الرغم من ذلك يمكن القول بأن العقلانية المادية كثيرا ما تتعايش مع اللاعقلانية المادية، وترتبط بها. فالوضعية العلمية المنطقية تعبير عن العقلانية المادية التي لا تؤمن إلا بالتجريب والأرقام، ولكنها في الوقت ذاته تعبير عن اللاعقلانية المادية لأنها غير معنية بالكليات والمنطلقات الفلسفية (المسيري، ٢٠٠٧، ينظر: ٣٥). وما هذا التعايش إلا بسبب قوة تحكم الفلسفة الذارئعية والنفعية في المجتمعات الغربية، ذات الثقافة البروتستانتية.

[٤٢] لا يمنعنا هذا من القول بأن لعصر النهضة الأوربية مزايا إيجابية هائلة خدمت البشرية في مجالات حياتية شتى، فالبحث اللساني الأنثروبولوجي ليس قصيدة هجائية، كما أنه ليس قصيدة مدحية.

(الحداثة) نفسها؛ التي كان الرجلان؛ لوثر، وديكارت، من الأسباب المؤثرة جدًّا في قيامها، لم تكن في أي يوم من أيامها إلا ملتاثة بـ(ما بعد الحداثة)، فقد كانت النهضة الأوربية –في واقع حالها–تجمع (الحداثة)، و(ما بعدها) في خط زمني واحد، مع فارق نسبي في قوة التمكن، والاستحواذ على تسيير شؤون العالم. أما القدر الرئيس من (الخطيئة الثقافية) فقد ظل مرتبطاً بـ(السلالة الهوبزية)؛ تلك الفلسفة الوجودية؛ غير المثالية، التي قطعت الآصرة الرابطة بين الإنسان ومنظومات المثل الدينية، ونحت منحى لسانيًّا أنثروبولوجيًّا خطيرا –منذ بضعة قرون خلت– لتأسيس خراب العالم، بحيث صار الجنس البشري، بعلم أو بغير علم، بانتظار اللحظة الفارقة التي يظهر فيها علماء أحيائيون (بيولوجيون) يتمكنون فيها من تصنيع (الإنسان المستنسخ)، و(الإنسان الهجين) المتكون من جينات بشرية، وأخرى قردية، وربما الإنسان المدعم بجينات مأخوذة من دب قطبي، أو من كائن مجهول قادم من الفضاء الخارجي، فكل الاحتمالات مفتوحة مادام الإنسان قد سقط –على وفق سَدَنة الفلسفة الهوبزية–في قبضة الصيرورة. وربما لا يوجد نشاط لساني أنثروبولوجي فلسفي غربي فتح الباب الفكري لشرعنة الخراب البشري القادم كما فعلت نصوص فيلسوف بريطانيا؛ توماس هوبز، الذي يمكن عدّه الأب الفلسفي التاريخي لهربرت سبنسر، وفردريك نيتشه، ولكل الفلاسفة، والمفكرين، والقادة السياسيين الذين جرت، وتجري على وفق إراداتهم –في حقبة الحداثة نفسها–الحوادث الكبرى المؤسسة لتاريخ الخراب في العالم، كالحروب العالمية العظمى، واستعباد الملايين من البشر الأفارقة، وإلقاء القنبلة الذرية على اليابان، وصراعات الحروب الباردة والساخنة، واحتلال بلدان العالم الثالث، ونهب ثرواتها، وتقسيمها بوصفها غنائم الأقوياء القادرين على أخذ كل شيء، وبذرائع شتى.

تكمن خطيئة توماس هوبز في أنه أفرغ الكينونة الإنسانية من أية قيمة قبلية، قد تكون مرجعية صالحة لضبط ثنائية الصلاح والفساد في التجمعات البشرية، وَوَكل الأمر برمته إلى وجود الدولة، بوصفها (القوة الفيزيائية) الضابطة الوحيدة لمجريات أمور الناس في العالم؛ يقول هوبز: ((إن رغبات الإنسان وأهواءه الأخرى ليست في حد ذاتها خطايا. كذلك الأمر بالنسبة إلى الأفعال التي تنتج عن تلك الأهواء، إلى أن يُعرف قانون يمنعها؛ وهذا ما لن يحصل قبل أن تُسَنّ القوانين، ولا يمكن أن يُسَنّ أي قانون إلى أن يتمّ الاتفاق على الشخص الذي سَيسنّه)) (هوبز، ٢٠١١: ١٣٥–١٣٦)، فتوماس هوبز يعلق اعترافه بوجود خطيئة بشرية بحال كون الإنسان فرداً في مجتمع ما، وبوجود قانون يجرم عملاً ما، ليصنف بعد ذلك على أنه خطيئة، فإذا حصلت الخطيئة في خارج نطاق المجتمع، فلا تعد خطيئة. فهي –إذن– ليست قضية موضوعية، مستقلة، كائنة في التفكير البشري المجرد، بل فعلة منوطة

بحصولها في (مجتمع)، وبتصنيف القانون الوضعي لها بأنها خطيئة. ويقوّض توماس هوبز ثوابت العقل البشري، بهدم ثنائياته الراسخة عبر الأزمنة، ومنها: ثنائية (الخير والشر)، و(الخطأ والصواب)، و(الظلم والعدالة)، ليستحيل الوجود الطبيعي مسرحاً متاحاً لممارسة القوة المجردة من القيم القبْلية، ومن جميع المُثل التي درجت عليها الثقافات البشرية، ولا يمكن –على وفق فلسفة هوبز الأنثروبولوجية–حساب أي شيء بحساب الخطأ والصواب، أو الظلم والعدالة، مادامت (السلطة السياسية المشتركة) غير متاحة، وما دام (القانون الوضعي) غائباً عن ساحة الفعل المجتمعي (هوبز، ٢٠١١، ينظر: ١٣٦) [٤٣]، الأمر الذي يكرس انتفاء وجود أية قيمة عليا للحق والحقيقة والخير والجمال.

قد يبدو لأول وهلة أنَّ توماس هوبز فيلسوفٌ ساعٍ لتعزيز فكرة احترام القانون، وترسيخ القيم المدنية، لكن الأمر في نتائجه الجدلية (الديالكتيكية) لن يكون كذلك، فما فعله مارتن لوثر بِنيّة حسنة، فعله توماس هوبز بِنية تغالبية، مع سبق الإصرار والترصد، لأن تاريخ الجنس البشري ما كان يوماً تاريخاً متواصلا للقوانين الوضعية، والمؤسسات الحكومية، ولا هو تاريخ للمجتمعات الثابتة، غير القابلة للتقويض، والانهيار، فثمة تصدّعات تاريخية كبرى –كانهيار الإمبراطوريات التقليدية مثلاً– تسببت في انهيار كامل للمؤسسات القانونية، وكانت القيم، والمثل الإنسانية الثقافية، المتوارثة –التي ينكر توماس هوبز وجودها– العامل الرئيس الأقوى أثراً في حفظ التجمعات البشرية. إن إلغاء توماس هوبز أية قيمة ثقافية قبلية، وجعله الأمور منوطة بالعقد الاجتماعي، ووجود دولة المؤسسات الثابتة، ما هو إلا توفير شرعية فلسفية لسانية أنثروبولوجية لاحتدام الصراعات التغالبية بين الأقوياء على الصدارة، والاستحواذ على الوجود الطبيعي. فإذا انفرط ذلك العقد، أو انهارت تلك الدولة فللإنسان أن يتصرف كما يشاء ليضمن استمراره في الوجود الحسي الغرائزي، كسائر الكائنات الحية التي تجوب الصحارى، والجبال، والغابات، والمستنقعات؛ يقول توماس هوبز: ((ليس العدل والظلم من ملكات الجسد أو الفكر، فلو كانا كذلك، لتواجدا في إنسان وحيد في العالم، تماماً كحواسه وأهوائه، إنها صفات ترتبط بالبشر في مجتمع، وليس وحدهم. وينتج عن الحالة نفسها أنه لا ملكية ولا سلطة ولا تمييز بين ما هو لي وما هو لك، بل إن مُلك كل إنسان هو فقط ما يستطيع الحصول عليه، طالما أنه قادر على الاحتفاظ به)) (هوبز، ٢٠١١: ١٣٦–١٣٧)، فهوبز يرى أن صفات العدل، والخير–من منطلق أن الوجود يسبق الماهية– ليست جزءاً من الطبيعة البشرية، بدليل عدم وجودها–كما يزعم– في إنسان وحيد في مكان ما في

[٤٣] ونص هوبز هو: ((وينتج أيضا عن حرب كل إنسان ضد كل إنسان، أنْ لا شيء يمكن أن يكون ظالماً. إن أفكار الصواب والخطأ، والعدل والظلم، لا مكان لها هنا. حيث لا سلطة مشتركة، ولا وجود للقانون؛ وحيث لا قانون، لا ظلم)).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

العالم، بل هي متعلقة، أو منوطة بوجود المجتمع، ولكل إنسان –بخلاف ذلك– امتلاك ما يستطيع الحصول عليه، مادام يمتلك القدرة على فعل مايشاء. يبدو تحكّم توماس هوبز المفرط في تزوير الطبيعة البشرية شديد التمظهر عند إجرائه موازنة بين وجود (الحواس الخمس)، ووجود (منظومة الظلم والعدالة) لدى (إنسان وحيد)، في مكان ما في العالم، لتكون النتيجة –بحسب التنظير الهوبزي–حضور الحواس الخمس، وانعدام منظومة الظلم والعدالة، ما يعني ألّا وجود –في فلسفته– لأية منظومة أخلاقية إنسانية عامة[٤٤]. فالحق هو حق بمقتضى الواقع الطبيعي (المادّيّ) للعالم، ومضمونه ((هو حرية كل إنسان في أن يستخدم قوته وفق ما يشاء هو نفسه من أجل الحفاظ على طبيعته، وبعبارة أخرى الحفاظ على حياته)) (هوبز، ٢٠١١: ١٣٨)، و(الحفاظ على حياته) قد لا تتحقق إلا بسرقة (حياة الآخرين)، أو استئصالهم من الوجود الماديّ، أو الثقافي[٤٥]. ويبقى القانون الوضعي فقط – لدى هوبز– هو المانع الذي يحول دون انطلاق تطبيق (الحق الطبيعي)، فلا شيء غير (الدولة) يمكنه الوقوف بوجه الأهواء التي تسيّر الحياة البشرية على الطريق السليم، ولا شيء سوى الخوف من العقوبة يدخل الناس في دائرة ضنك احترام (العقد الاجتماعي) (هوبز، ٢٠١١، ينظر: ١٧٦)، وتتكشف في قول هوبز؛ ((إن مُلك كل إنسان هو فقط ما يستطيع الحصول عليه، طالما أنه قادر على الاحتفاظ به)) بعضُ أسوأ جذور الإمبريالية الغربية الإنكليزية، والفرنسية، ثم الأمريكية، التي أكلت بلدان العالم الثالث أكلاً، بطريقة ربما لم تتفوق عليها فيها أية قوة إمبراطورية أخرى في التاريخ.

هذه بعض النصوص اللسانية الأنثروبولوجية الفلسفية، التي تنتظم العقل الغربي، المتجه نحو توخي المزيد من القوة، والسيطرة، والتحكم بالكوكب؛ العقل ما بعد الحداثي؛ غير المكبَّل بمنظومات قيم الدين، والتقاليد، وغير المتصالح مع المقولات الثابتة من نواميس الحياة البشرية. وفي هذا الحقل الفلسفي الأنثروبولوجي حصل الاندماج المرعب بين الداروينية الأحيائية والداروينية الاجتماعية، الأمر الذي مهّد الطريق اللاحب لـ((ظهور الإنسان العلمانيّ (الطبيعيّ/ الماديّ) ذي البعد الواحد؛ (الإنسان النيتشويّ الأعلى والإنسان البيروقراطيّ البرجماتيّ)، وسيادة المرجعيّة الماديّة)) (المسيري، ٢٠٠٢: ٢/١٠٨-١٠٩)،

---

[٤٤] ثمة عبارة خطيرة متداولة في السينما الهوليودية، وهي: فعلت ذلك لأنني أستطيع. ومثلها عبارة: هناك نوعان من الناس؛ نوع يحمل أسلحة كثيرة، وآخر يحمل أسلحة قليلة. وعبارة: في هذا العالم نوعان من الناس يا صديقي؛ الذين يحملون البنادق، والآخرون الذين يحفرون، أنت تحفر.

[٤٥] هذه مرجعية فلسفية كافية لتشريع استئصال شعوب الهنود الحمر، ولم تكن العملية سوى إحلال عرق (أعلى) محل عرق (أدنى)، كما هو شائع في الثقافة الغربية (المتنية)، التي قد تبدو بعض مظاهر الثقافة (الهامشية) الرائجة نقيضاً لها، ولكنها نقيض غير مؤثر تأثيراً ذا استدامة بنيوية يُمكنها تغيير الواقع، فمازال التمييز العنصري موجوداً إلى اليوم في الحياة العامة، على الرغم من ترؤّس باراك أوباما؛ (الأسمر) للولايات المتحدة.

لينطلق نموذج الإنسان الخارق (السوبرمان)، البديل عن الرب، الذي لا يحتاج –بعد أن توفر له البناء النظري الفلسفي الأنثروبولوجي–سوى المزيد من التقدم العلمي ليشرع بتحقيق مآربه في إعادة تشكيل وجه العالم.

إن (الإنسان النيتشوي)؛ صاحب الإرادة المطلقة، الذي لا حاجة به للمدد الإلهي، يعلن غزو العالم لصالح ذاته المستعلية المطلقة، لأنه سليل الإنسان المسيحي البروتستانتي؛ المتمتع بملكية القيمة العليا في العالم الطبيعي، والحق الحصري بتجسد الإله الخالق في الكائن البشري المخلوق، كما ترى ذلك عقيدته البروتستانتية (المسيري، ٢٠٠٢، ينظر: ١١٤/٢). ولا مانع أمامه – مادام يمتلك القوة والتمكين– من الشروع بتحويل (الإنسان)، إلى (مرحلة ما بعد الإنسان)، المرحلة التي سعت الفلسفات الغربية ذات المنحى الأنثروبولوجي سعياً حثيثاً نحو تحقيق انطلاقتها الكبيرة. فليس ثمة بقاء، أو استمرار لكائن حي اسمه: (الإنسان)؛ الكائن البشري الذي عرفته الحضارات الأرضية عبر الآماد، والعصور، بل سيوجد شيء آخر، قد يكون من الصعب التكهن بماهيته، أو بماهيتيه؛ الحيوية، والثقافية.

فتحت فلسفة توماس هوبز في القرن السابع عشر الطريقَ واسعاً لمجيء الداروينية الاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر، التي شرعت بتفكيك مقولة (الذات الإنسانية المستقلة)، وضربت فكرة وجود الواقع الموضوعي الثابت، مبشرة بالواقع الطبيعي المادي، الذي يكون –من منظورها؛ ما بعد الحداثي– في حالة حركة مستمرة وتغير دائم، ليتحول العالم إلى كيان شامل، تتساوى فيه الأطراف والمركز، والمطلق والنسبي، ويصبح فيه الإنسان مساوياً للكائنات الطبيعية المادية. وهذا العالم–على رأي الدكتور المسيري– لا يوجد فيه قمة، أو قاع، أو يمين، أو يسار، أو ذكر، أو أنثى، ويُقضى فيه على الثنائيات الصلبة، كالخير والشر، والحقيقي والمزيف، والمطلق والنسبي، والعدل والظلم، والإنساني والطبيعي، والخالق والمخلوق، وتنفصل المدلولات فـ(تتراقص) بلا جذور، ولا مرجعية، ولا أسس، وتصبح كلمة (إنسان) دالًّا بلا مدلول، أو دالًّا متعدد المدلولات (المسيري، ٢٠٠٢، ينظر: ٢٧٩/١–٢٨١). وربما –بعد هذا كله–لو كان القس مارتن لوثر يعلم أن إصلاحه الديني سيؤول إلى انتهاء حقبة الارتباط بالعقائد، والأديان، وبالسيد المسيح (ع)، بل إلى انتهاء حقبة الجنس البشري، ربما كان سينأى بنفسه عن الإقدام على إنقاذ فقراء أوربا الغربية المساكين الجهلة من سطوة البابوات، والقساوسة، وصكوك الغفران، والعقيدة الكاثوليكية، فما كان يحسبه صلاحاً ورحمة وديناً صحيحاً هو ما أوصل فريدريك نيتشه –بجدلية فكرية ديالكتيكية–لأن يقول: ((نحن الذين ندين بغير دين، نحن الذين لا نعدّ الحركة الديمقراطية صورة من صور الانحطاط في التنظيم السياسي وحسب، بل صورة انحطاط الإنسان، صوره

تصغّره، تجعله وسطيًّا وتحط من قيمته، فإلى أين يجب أن نتجه نحن بآمالنا؟ إلى فلاسفة جدد، وليس لنا خيار آخر، إلى أرواح، أقوياء وأصليين إلى حد يمكنهم من أن يدفعوا التقييمات نحو وجهة معاكسة، ويعيدوا تقييم (القيم الخالدة) ويقلبوها)) (نيتشه، ٢٠٠٣: ٢٠٣)، تبدو عناصر تخريب العالم مكتملة الوضوح والتحشيد، في هذا النص الوجودي اللساني الأنثروبولوجي، الذي تسير على وفق مضموناته القوى المسيطرة على الكوكب، حتى وإن ادّعت في وسائل إعلامها التعاطي بمضمونات سياسية، يمكن عدّها مرتبطة بالمرجعية الديكارتية.

كان (صندوق باندورا)[٤٦] الأوربي الغربي مقفلاً على شرور العالم الأرضي، لكنه مقفل بشرٍّ آخر هو استعباد الكنيسة الكاثوليكية للشعوب الغربية المسيحية، وكان فتحُ الصندوق مسألة وقت ليس أكثر، فإذا كان القس الألماني مارتن الوثر هو الذي صنع المفتاح، فإن الفيلسوف العقلاني المؤمن الذي تسبب بإلحاد حشود بشرية كبيرة؛ رينيه ديكارت هو الشخص الذي فتح باب (الصندوق) بحذر شديد، أما الفيلسوف البريطاني توماس هوبز ففتح الباب عن آخره، لكن هربرت سبنسر، وفريدريك نيتشه، وعلى أساس علمي أحيائي (بيولوجي) داروين، خلعا الباب، وألقيا به في حدائق (القردة العليا)، فتمهَّدَ طريقُ خرابِ الشعوب الغربية الثقافي، التي نقلت العدوى –ومع سبق الإصرار والترصد والتخطيط– إلى أنحاء العالم.

سابعاً: النصوص اللسانية المحضِّرة لـ(مرحلة ما بعد الإنسان)

يجري –في الزمن الراهن– تأكيد اللحظة الفلسفية النيتشوية، في الفكر الغربي، بنصوص لسانية فلسفية أنثروبولوجية لمفكرين غربيين يتمتعون بدرجة مهمة من الحضور، والتأثير. وتتأكد من باب أولى –وبخطاب شعبوي مباشر، غير مختبئ خلف أساليب المجاز، والتحليل الدلالي التوفيقي– سيرورةُ السلالة الهوبزية في الفلسفة الغربية؛ السلالة التي دعّمها المفكرون العابرون فلسفيًّا للكينونة الإنسانية. وتؤذن مضمونات تلك النصوص باقتراب عصر التحولات البنيوية في طبيعة الجنس البشري الحيوية (البيولوجية)، المألوفة التي بقيت قائمةً صامدةً منذ فجر التاريخ؛ تقول الباحثة روزي بريدوتي: ((يصر البعض منا على الشعور بالارتباط التام بـ(الإنسان)، ذلك المخلوق المألوف منذ زمن سحيق...ومع ذلك فإن فكرة ما بعد الإنسان تتمتع الآن بشهرة واسعة...فتثير الغبطة بشكل كبير وتحفز التمثيل الثقافي)) (بريدوتي، ٢٠٢١: ٢٠٥)، تتكلم هذه الباحثة على (مرحلة ما بعد الإنسان)

[٤٦] صندوق باندورا في الأساطير الإغريقية: صندوق يتضمن كل شرور البشرية كالجشع، والغرور، والكذب، والخديعة، والحسد، والوقاحة، والصراع بين الأخوة، والأمراض، والعلل، والطمع (شعراوي، ١٩٨٢، ينظر: ٩٦).

بخطاب لساني أنثروبولوجي، مدعّم بنزعة تبشيرية واضحة، سائرة على خطى فريدريك نيتشه الفلسفية التبشيرية، بغض النظر عن نواياها (الحسنة) التي قد لا تتفق وأفكار الفيلسوف الألماني، لكن ذلك يُعد بلا طائل، فما قيمة أية دعوى مقدَّمة بلغة جمالية، أو تصالحية مادام الأمر يتعلق بداهةً بنهاية الجنس البشري، وهذه هي الفلسفة النيتشوية بأجلى صورة، ففيما طرحته الباحثة (روزي بريدوتي) ثمة نزوع علني يصل إلى حد الكلام بطريقة الخطاب الجماهيري، المتأتي من سقوط الإنسان –على وفق الداروينية الاجتماعية–في قبضة الصيرورة، ما يعني تفكيك الإنسان، وإعادة تشكيله في صيغ أحيائية مستحدثة، قد يصعب التكهن بأنواعها، أو أشكالها.

وثمة –مِنْ مفكري العالم الغربي– مَنْ يتحدث عن مرحلة قد تتفوق في خطرها على خطر الاعتقاد بقوانين الانتخاب الطبيعي، فمع سيرورة سنوات القرن العشرين تخلّقَ نزوعٌ علميٌّ أحيائي نحو إحلال (قوانين التصاميم الذكية) بدلاً من ترك الأمر لقوانين تشارلس داروين الانتخابية الطبيعية؛ يقول يوفال هراري: ((ربما قدّم الانتقاء الطبيعي للإنسان العاقل مجالاً أكبر بكثير للمناورة مما قدمه لأي كائن آخر، لكن ظل ذلك المجال محدوداً. وكانت النتيجة المترتبة على ذلك–وبغض النظر عن الجهود والإنجازات–أن ظل العقلاء عاجزين عن التحرر من حدودهم المقدّرة بيولوجيًّا)) (هَراري، ٢٠١٨: ٤٧٣)؛ ما يعني أن الانتخاب الطبيعي، الذي شرّعه داروين سبيلاً لـ(ارتقاء) الإنسان، لم يعد مناسباً لمجريات الأحداث، لأنه يُبقي البشر ضمن (حدودهم المقدّرة بيولوجيًّا). إن البقاء على القيد الداروني لم يعد – من منظور نيتشوي–صحيحاً، أو مقبولاً ، أو كافياً، ففي فجر القرن الحادي والعشرين تجاوز الإنسان العاقل (الحدودَ الداروينية)، وبدأ بخرق قوانين الانتخاب الطبيعي ليُحلَّ محلها التصاميم الذكية، أو قوانين الانتخاب الصناعي، التي تمثل تدخل الإنسان في عملية تحويل نفسه إلى شيء آخر، أو كائن آخر، غير بشري(هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٧٣)، وهذا كله يتحقق بالاعتماد على القدرة العلمية، وبشكل يتساوق والصيرورة الطبيعية، المبنية على إنكار وجود الإله المتعالي على التاريخ.

ويزداد الأمر سوءاً عندما يصدر ذلك (التبشير) من عالم أحيائي أكاديمي مرموق في بلاده، فالعالم البريطاني ريتشارد دو كنز مثلاً، وهو (أستاذ علم الأحياء في جامعة أكسفورد)، يرى ((أن الإيمان بإله متجاوز للنظام الطبيعي إنْ هو إلا خلل في العقل يشبه الفيروس الذي يصيب الكومبيوتر، أي إن المرجعية النهائية هنا هي (الطبيعة؛ المادة) التي تشبه الكومبيوتر المبرمج بدقة بالغة. ويؤكد دوكنز على أنه لا يعدّ نفسه عضواً في الجنس البشري ولا إنساناً عاقلاً؛ (هومو سابينز))) (المسيري، ٢٠٠٧: ١٩٣)، ويلاحظ أن إنكار

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

عالم الأحياء؛ ريتشارد دوكنز، الإيمان الديني مربوط على نحو مثير بسقوط الإنسان في قبضة الصيرورة، والتخلي عن حقيقة الانتماء إلى الجنس البشري. وقد كان لهذا الأستاذ العالِم نشاط سياسي، قام به من أجل منح القردة، بوصفها (أقلية مضطهدة) حقوقاً متساوية مع البشر، على أساس الأطروحة الداروينية القائمة على تساوي البشر والقردة من الناحية الجوهرية، وأن البشر –في واقع الأمر– هم قردة أيضاً (المسيري، ٢٠٠٧، ينظر: ١٩٣). ويلفت النظر كثيراً أنَّ ثمة نصًّا فلسفيًّا أنثروبولوجيًّا لهذا العالم نفسه، يتضمن قضية استشرافية، تقوم على تكهنات تطويرية أحيائية قد تكون مستمدة من تجارب سرية غير معلن عنها، يتحدى فيه المنظومة الأخلاقية البشرية التقليدية، ويضعها في أسْر الحيرة الوجودية (الأنطولوجية)، والمعرفية (الإبستيمولوجية) على حدّ سواء؛ يقول دو كنز سائلاً سؤالاً تسقيطيًّا ساخراً : ((ماذا لو نجح أحد العلماء في تطوير هجين من الإنسان والقرد، في هذه اللحظة سيصيح القساوسة والمحامون والإنسانيون والرجعيون ويقفون ضدّ هذا الإنجاز العلمي الذي يدعم نظرية الاستمرار، وهو ما يدل على تحجّرهم وإيمانهم بقيمهم الأخلاقية المتحجرة، والقيم الأخلاقية ليست مصنوعة من الحجر، فهي خاضعة للتغيير)) (المسيري، ٢٠٠٧: ١٩٥)[٤٧]، والمقصود بالتغيير الاستمرار، والتطور، والتجاوز للبنى الثقافية الراتبة.

وعلى هذا المسار ذي الطبيعة الإشكالية ظهر (مشروع القرد الأعظم) في لندن، في العام ١٩٩٣، الذي أصدر (إعلان القردة العليا) على غرار (إعلان حقوق الإنسان)، وقد عرّفت عالمةُ أنثروبولوجيا هولنديةٌ، تُدعى بربارة نوسكي هدف هذا الإعلان بأنه فكٌّ للتمركز حول الإنسان(المسيري، ٢٠٠٧: ١٩٥)، الذي يعني انفلات التطور الحيوي (البيولوجي) للإنسان نحو إنتاج تحولات كبرى على الصعيد النوعي للكائنات الحية.

ويرى يوفال هراري أن تسارع التطور التقني سيؤدي قريباً إلى استبدال كائنات مختلفة بالكامل بالإنسان العاقل؛ (الحالي)، وستكون الكائنات القادمة مختلفة من حيث البنى الجسدية، وتمتلك عوالم معرفية وعاطفية مغايرة جدًّا لما هو معروف في عالمنا البشري المعاصر (هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٩٠). وقد حصلت مقدمات تجريبية على مستوى كائنات أخرى غير البشر، فعلماء الهندسة الوراثية –بحسب يوفال هراري– يخرقون قوانين الانتخاب الطبيعي وهم بمأمن من العقاب، وغير مقيدين بالخصائص الأصلية للكائن الحي. وعلى هذه السبيل أخذ علماء فرنسيون جنينَ أرنب أبيض، من النوع المعتاد، وزرعوا فيه مورّثاً (جيناً) مأخوذاً من قناديل البحر الخضراء، وكانت النتيجة الحصول على أرنب بلون أخضر، وهو المعرف في الأوساط العلمية بـ(الأرنب ألبا)، ولا شك أنه كائن لا يمكن شرح وجوده بقوانين

[٤٧] والإنسانيون: هم المتمركزون حول فكرة كون الإنسان هو المخلوق الأسمى في الوجود.

الانتخاب الطبيعي(هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٧٥). وثمة دعوة لإعادة إحياء الكائنات المنقرضة كالديناصورات، والماموث. بل اقترح أستاذ من جامعة هارفارد، يدعى الدكتور جورج تشيرش إعادةَ، (إنسان النياندرتال) إلى الحياة، وثمة دفاع عن هذا الإحياء بحجج شتى، من بينها استخدام الكائن الناتج عن الإعادة في إنجاز أعمال وضيعة لصالح أرباب المصانع مقابل الحصول على أجر مالي زهيد منهم (هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٧٩-٤٨٠). ويصرح يوفال هراري -في دعوة جريئة، وخطيرة جدًّا، تتجاوز (قضية إحياء إنسان النياندرتال)- متسائلاً: لماذا نتوقف عند إنسان النياندرتال؟ لماذا لا نعود إلى مخطط الربّ الأصلي، ونصمم إنساناً عاقلاً، بطريقة أفضل مما هو موجود؟ فإذا كانت الهندسة الوراثية قادرة على (خلق فئران عبقرية)، فلِمَ لا (تخلق بشراً عباقرة)؟ (هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٨٠). وفي مثل هذا النشاط اللساني تصل الفلسفة الأنثروبولوجية الغربية، في طروحاتها المستقبلية إلى مدياتها القصوى عندما تعلن صراحة عن رغبتها بأخذ (القيمومة الإلهية) في تسيير شؤون العالم. وصارت على المستوى التطبيقي الكائنات الأسطورية التي صنعتها ثقافات الإنسان القديم؛ السومري، والبابلي، والمصري، والإغريقي بمزجه أجزاءً من حيوانات مختلفة، حقيقةً عضويةً، أحيائية عندما ظهر على عدد من وسائل الإعلام (فأرٌ)، تمكن علماء أحيائيون من زراعة (أذنٍ) على ظهره، مصنوعة من خلايا غضروفية لبعض الماشية (هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٧٧).

ويرى يوفال هراري أن واحداً من أكثر المشروعات اندفاعاً نحو إنهاء (مرحلة الإنسان) لتحقيق الانتقال إلى (مرحلة ما بعد الإنسان) محاولة ابتكار منصة حاسوبية دماغية ثنائية الاتجاه مباشرةً، تسمح للحاسب الآلي بقراءة إشارات كهربائية من دماغ بشري، وتُرجع في الوقت نفسه إشارات كهربائية يمكن للدماغ أن يقرأها في المقابل (هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٨٥). وهذا ما يطلق عليه مصطلح: (الحيوالة)، المُعبّر عن مرحلة مزج الإنسان بالآلة، أو (هندسة الحيوالة)، التي هي (هندسة الحيوان والآلة) بمعنى هندسة الكائنات التي تتكون من أجزاء عضوية وأخرى غير عضوية، أو هندسة الحياة غير العضوية (هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٧٦). ويمكن -والكلام لهراري- لأي (حيوالٍ) أن يستعيد ذكريات (حيوالٍ) آخر؛ لم يسمع عنها، ولم يقرأها عنها في سيرته الذاتية، وهو -والحال كذلك-لا يتخيلها، بل يتذكرها مباشرة، كما لو كانت هذه الذكريات ملكاً له. ويطرح يوفال هراري جملة من الأسئلة المفرغة في هذا الشأن، من مثل: ماذا لو استُخدمت هذه المنصّات لربط الدماغ الفردي مباشرة بالشبكة العالمية؛ (الأنترنت)، أو ربط الكثير من الأدمغة معاً، ليُخْلَقَ -من ثمَّ- نوعٌ من شبكة بينيّة؟ ماذا يحدث للذاكرة البشرية، وللوعي الإنساني، بل وللهوية الإنسانية إذا كان

للدماغ الواحد قدرة الوصول الفورية إلى (مصرف عملاق للذاكرة البشرية الجماعية)؟ ماذا سيحدث لمفاهيم النفس، والجنس؛ (الجندر)، والأحلام، والمشاعر، والأحاسيس عندما تنضوي في (خزانة جماعية) لكائنات ما بعد الإنسان(هَراري، ٢٠١٨، ينظر: ٤٨٥).

وبالنظر لقوة الموجة الفلسفية المنادية بالتحضير لمرحلة ما بعد الإنسان، اندرج بعض من كبار الفلاسفة الإنسانيين غير المُرحِّبين بعصر التحولات القادم، مضطرين في حمْأة الترويج –بشكل أو بآخر–لهذا النوع من النشاط الفلسفي؛ يقول فرنسيس فوكوياما، المفكر الغربي غير المؤيد لانتهاء عصر الإنسان: ((قد نمسي على وشك الولوج إلى مستقبل بعد بشري، ستمنحنا فيه التقنية القدرة على تعديل هذا الجوهر البشري تدريجيًّا بمرور الزمن))[٤٨]، و((تشير الهندسة الوراثية على الفور لإمكانية ظهور شكل جديد من اليوجينيا، بكل ما شحنت به هذه الكلمة من تضمينات أخلاقية، ثم في النهاية القدرة على تحوير طبيعة الإنسان)) (فوكوياما، ٢٠٠٢: ١٢٠)[٤٩]. إن التبشير بتغيير الكينونة الإنسانية يجري التصريح به على قدم وساق–حتى من معارض مثل فوكوياما–فلم يعد كثير من الناس في العالم الغربي يولون بشأنها أي اعتبار لروادع أخلاقية، أو ثقافية، أو دينية، بل إن المعلومة التي يوردها فوكوياما: ((إمكانية ظهور شكل جديد من اليوجينيا))، تكاد تُعلنُ حَظْرَ أي اعتراض ثقافي، أو ديني؛ (كنسي) على فكرة تعديل الكينونة الحيوية (البيولوجية) للإنسان، بجعلها علم تحسين الجنس البشري؛ (اليوجينا) أمراً واقعاً في الحياة، شأنه شأن الفيزياء، والكيمياء، أو أي علم آخر أَلِفتْه البشرية عبر التاريخ. ويقول فوكوياما: ((ستكون الجائزة الكبرى للتكنولوجيا الوراثية الحديثة هي (الطفل التفصيل)، نعني أنه سيتمكن الوراثيون من تحديد الجين الخاص بخصيصة كالذكاء أو الطول أو لون الشعر أو العدوانية أو تقدير الذات، وأن يستخدموا هذه المعرفة في تخليق صيغة طفل أفضل. لا يلزم أن يأتي الجين المعني حتى من إنسان)) (فوكوياما، ٢٠٠٢: ١٢٥)، وفي العبارة الأخيرة؛ ((لا يلزم أن يأتي الجين المعني حتى من إنسان)) إعلان صريح من مفكر (إنساني)، بانتهاء (عصر الإنسان)، وهو ما يترتب عليه إعادة النظر بتعريف (مصطلح الإنسان)، بسبب هذا التشويه المتعمد للبنية الأحيائية على وفق قوانين الهندسة الوراثية التي لا تنظر إلى الإنسان بوصفه عملاً مُعجِزاً مُنتَجَاً بالخلق الإلهي، بل بوصفه مجموعَ سلسلةٍ من الأسباب المادية (فوكوياما، ٢٠٠٦، ينظر: ١١٧). وهذه علامة من العلامات العلمية الفارقة، المشيرة لاقتراب كارثة

[٤٨] مستقبلنا بعد البشري (فوكوياما) ٢٦٧.
[٤٩] واليُوجينا (علم الأحياء): علم تحسين النَّسل.

نهاية الجنس البشري[٥٠]، بحيث لا يعود البشر بشراً بالمعنى العلمي الحيوي (البيولوجي)، فثمة مورِّث (جين) مستعار، سيؤخذ من أجناس أخرى.

ثامناً: الانقسام الفلسفي الأنثروبولوجي بين مفكري العالم الغربي

على الرغم من تدفق النصوص الفلسفية الأنثروبولوجية الغربية الداعمة لاتجاه التحولات االحيوية (البيولوجية)، فإنَّ مثقفي العالم الغربي ومفكريه –وهذا أمر مألوف في تاريخهم الفكري–ليسوا متحدين تجاه تغيير طبيعة البنية العضوية للجسد البشري، فثمة انقسام–كما هي العادة– بهذا الشأن، بيد أنّ حركة التاريخ سائرة كما يبدو باتجاه الخيار النيتشوي، وما تمليه الدراوينية الاجتماعية، فالباحثة روزي بريدوتي الداعمة بقوة لانطلاقة حقبة التحولات تصف مستعرضةً حالة الذعر الأخلاقي، والإدراكي لدى بعض المفكرين الغربيين التقليديين، الحداثيين، من مثل فرنسيس فوكوياما، وهابرماس، وبورادوري، لتدحض –بعد ذلك– إظهارهم الخوف من التحول إلى (مرحلة ما بعد الإنسان)، ولومهم للتقنيات المتقدمة على ذلك، ثم تطرح رأيها (التبشيري) المناقض لهم، معبرة عن فلسفتها الطبيعية المغرقة في الواحدية المادية؛ تقول روزي بريدوتي: ((بصفتي مهتمة بدراسة ما بعد الإنسان، ومناهضة للحركة الإنسانية، فأنا أقل عرضة للذعر من جراء نزوح مركزية الإنسان، بل يمكنني أن أرى مزايا هذا التطور)) (بريدوتي، ٢٠٢١: ٧٨)، فهذه الباحثة تناهض (الحركة الإنسانية) بنص صريح، داعية إلى ترك فكرة الثبات على مركزية (إنسانية الإنسان)، ومبشرة بالذهاب إلى حقبة تحويل البشر إلى كائنات أخرى غير بشرية، وبذلك يمسي فرنسيس فوكوياما، وهابرماس، وبورادوري، وأمثالهم مفكرين رجعيين متخلفين، لأنهم مُصرّون على البقاء في إطار (الحركة الإنسانية).

ويؤكد يوفال هراري –بطريقة فجّة– موضوعة (القيام بدور الربّ) المأثورة، في حديث مُفعم بالدهشة العاطفية لِما يمكن أن تفعله الهندسة الوراثية من عجائب التشكيل الحيوي (البيولوجي)، لطبيعة الموجودات في هذا العالم؛ يقول هراري: ((يمكن تنفيذ عجائب أكثر إدهاشاً باستخدام الهندسة الوراثية، وهذا هو السبب في أنها تثير مجموعة من الإشكالات الأخلاقية والسياسية والأيديولوجية. وليس الموحّدون التقاة هم وحدهم الذين يعترضون على أن يقوم الإنسان بممارسة دور الربّ، فلم تكن صدمة العديد من الملحدين المخضرمين بأقل إزاء فكرة تدخل العلماء في عمل الطبيعة)) (هَراري، ٢٠١٨: ٤٧٧)، ما يعني أن التراثيين

---

[٥٠] من المعلوم أن معنى (اقتراب) بالمنظور الأنثروبولوجي لا يعني الساعات، أو الأيام، أو الأسابيع، أو الشهور، فنحن لا نتحدث عن فرد، بل عن جنس كامل يمتد في أرجاء الكوكب، ما يعني أن الـ(اقتراب) يتعلق بعشرات السنين، وربما بقرن من الزمن، أو أكثر، فالحضارة الغربية مثلا احتاجت بضعة قرون بعد انطلاقة عصر النهضة، لكي تعيد رسم الخريطة السياسية للكوكب، وتصنع حدودا مازالت البشر يتقاتلون على أساسها.

(الرجعيين) الإنسانيين المؤمنين، والملحدين على حد سواء، سيكونون في موقف المتمسكين بحقبة (مرحلة الإنسان)، وبقاء الجنس البشري بعيداً عن التحولات الحيويّة (البيولوجية) ذات الطبيعة البنيوية. ومردُّ خوف التراثيين الإنسانيين، أو (نشطاء حقوق الإنسان) يرجع إلى توقعهم استعمال التحولات الحيويّة (البيولوجية) إلى وسيلة علمية مؤكدة لاستعباد الجنس البشري. ويصرح يوفال هراري بهذا التوقع المثير للرعب، وكأنه يرى ما يمكن أن يجري من الأحداث على نطاق العالم؛ يقول هراري: ((يخشى نشطاء حقوق الإنسان من أن تُستخدم الهندسة الوراثية لخلق بشر خارقين يستعبدوننا. ويقدم المتنبئون رؤى مروعة لديكتاتوريات بيولوجية تستنسخ جنوداً شجعاناً وعمالاً مطيعين)) (هَراري، ٢٠١٨: ٤٧٨)[٥١]، وهذا آخر ما يتمناه سدنة الحداثة العقلانية الديكارتية المهددة بالأفول، والتنحي عن ساحة العمل في الحضارة الغربية.

إنّ وجود انشقاق عميق بين المفكرين الغربيين ليس بالأمر الخفيّ، فثمة فريق منهم، كـ(فوكوياما وأمثاله) ليس راضياً عن هذا التسارع المذهل في تغيير جوهر الطبيعة البشريّة، وهو الفريق الذي أطلق عليهم دوكنز (الإنسانيون)، و(الرجعيون)، أي الفريق الداعم الرئيس لاستمرار حقبة الحداثة في الحضارة الغربية، والبقاء الفاعل لمقولاتها المعروفة، كـ(حقوق الإنسان)، و(نشر الديمقراطية)، و(مكافحة التمييز العنصري)، و(مساواة المرأة بالرجل)، و(الحرية الجنسية)، وما شابه ذلك من المقولات التي تتبنى تفوق نموذج الإنسان الغربي، على أساس الفكر المتحدر من منظور السلالة الفلسفية الديكارتية، التي لم تقطع صلتها بعالم الغيب، وببعض القيم المسيحية. بيد أنَّ التقدم الظاهر للعيان في الهندسة الوراثية، والذكاء الصناعي، يدفع –كما بات واضحاً–باقتراب أفول عصر الحداثة، واقتلاع جذورها العقلانية الديكارتية من الفكر الغربي، الأمر الذي حدا بفرنسيس فوكوياما، المفكر الإنساني، الحداثي؛ (الرجعي) إلى التحاور مع الداروينية الاجتماعية بطريقة تبدو تصالحية إلى حد بعيد، ما يعني شدة إدراكه لقوة زحف الخطر القادم، ووضوح حضوره في ساحة عمل القوى العلمية؛ (الأحيائية)، و(التكنولوجية)، و(الفكرية؛ الفلسفية الأنثروبولوجية)، المؤثرة في تشكيل وعي الحضارة الغربية بالعالم؛ يقول فوكوياما: ((ربما كتب علينا أن نعتنق، بصورة ما، هذا النوع الجديد من الحرية، أو أن المرحلة التالية من التطور هي مرحلة، كما اقترح البعض، سنمسك فيها عن عمد بزمام بنيتنا البيولوجية، لا أن نتركها لقوى الانتقاء الطبيعي العمياء. لكننا إذا ما فعلنا ذلك، فلابد لنا من أن نفعله وأعيننا مفتوحة)) (فوكوياما، ٢٠٠٦: ٢٦٨)، فهذا المفكر الشهير المتمترس بتقديس (مرحلة الإنسان)، أو الحداثة الغربية يبدو مضطرًّا

[٥١] فقد ((أدى زرع جين استخلص من سمك قطبي شمالي في البطاطا إلى جعل البطاطا أكثر مقاومة للصقيع)) (هَراري، ٢٠١٨: ٤٨٧).

لأن يدعو –بخطاب استسلامي– لقدر من ترشيد الانتقال إلى مرحلة (ما بعد الإنسان)، لأنه يعلم صعوبة، وربما استحالة مواجهة الخطر القادم، بحكم كونه ابناً للبيئة المنغمسة بالبروتستانتية، والمنتجة للذكاء الصناعي، والهندسة الوراثية. ولا يملك –في مواجهة زحف كهذا– سوى الركون إلى خطابه الأخلاقي التصالحي، ليبث به قدراً من (الذعر العاطفي) في صفوف الأوساط الفاعلة الغربية، المستبشرة بتحولات الإنسان الحيوية (البيولوجية)، محاولاً – بطريقته تلك– إضعاف فكرة حصول نفع حقيقي للمجتمعات الإنسانية من وراء الفرضيات المبشرة بمستقبلٍ (ما بعد بشريّ)، واعدٍ بعالمٍ أفضل من عالمنا المعاصر الموروث من الحقب الزمنية السالفة، فثمة تشكيل هرمي مفترض سيترتب على انتهاء عصر الإنسان، سينتج –كما يرى هذا الباحث المفكر– فيضاناً مروعاً من الصراعات الاجتماعية؛ يقول فوكوياما: ((يفترض كثيرون أن العالم ما بعد البشري سيشبه كثيراً عالمنا هذا، أي أنه يمتلئ بالحرية والمساواة والرخاء والرعاية والتعاطف، ولكن مع رعاية صحية أفضل، وأعمار أطول، وربما ذكاء أعلى من معدلات الذكاء الحالية. لكن العالم ما بعد البشري قد يصير عالماً أكثر هرمية وتنافسية بكثير من العالم الموجود حالياً، وبالتالي يعج بالصراعات الاجتماعية)) (فوكوياما، ٢٠٠٦: ٢٦٨)، وتبدو هذه الصرخة متأخرة جدًّا، بل غير مسموعة في مختبرات الهندسة الوراثية، ولا قيمة تأثيرية لها في محاولة الحدِّ من تطوير الذكاء الصناعي.

وفي تأكيد حَذِر لتكهنات عالم الأحياء البريطاني دوكنز، ينعى فوكوياما (الماهيّة البشريّة) المهددة بالاندماج الوراثي (الجيني) بين البشر والأجناس الأخرى، فالعالم القادم ((قد يصبح عالماً تضيع فيه أية فكرة عن (الإنسانية المشتركة)؛ لأننا مزجنا الجينات البشرية بجينات أنواع أخرى كثيرة من الأحياء بحيث لم تعد لدينا فكرة واضحة عن ماهية الإنسان. قد يكون عالماً يدخل فيه الإنسان الوسطي قرنه الثاني من العمر، وهو يجلس في دار لرعاية المسنين يتطلع إلى موت يصعب الوصول إليه)) (فوكوياما، ٢٠٠٦: ٢٦٨). يرسم فوكوياما بنصِّه هذا صورةً مرعبة لعالم غرائبي (فنطازي)، قادم بديل عمّا ألفته البشرية منذ أن وعت وجودها على هذا الكوكب، وهو إذ ينقل الفكرة بما هي فكرة، يعلن رفضه لهذا النوع من المستقبل ما بعد البشري، منسجماً في ذلك مع حقيقة كونه من بقايا سدنة الفكر الحداثي، ذي الطابع (الإنساني المحافظ)، في الفلسفة الغربية؛ يقول فوكوياما: ((ليس علينا قبول أيٍّ من هذه العوالم المستقبلية تحت شعار زائف عن الحرية، سواء كانت تلك حرية الحقوق الإنجابية غير المحدودة، أو حرية إجراء البحث العلمي بلا قيود. ولا يتعين علينا اعتبار أنفسنا عبيداً للتقدم التقني المحتوم، عندما لا يخدم هذا التقدم غايات الإنسان. إن الحرية الحقيقية تعني حرية المجتمعات السياسية في حماية أغلى قيمها؛ وتلك هي الحرية التي

نحتاج إلى ممارستها فيما يتعلق بثورة التقنية الحيوية اليوم)) (فوكوياما، ٢٠٠٦: ٢٦٩)، لكن ما يقوله فوكوياما إنْ هو إلا استغاثة لإيقاف قطار منفلت خارج عن السيطرة، ما عاد أحدٌ من أقوياء العالم الغربي يرغب في الحد من قدومه المتسارع لتغيير طبيعة هذا العالم.

يسعى المسار الفكري الداروينى الاجتماعي، بدفقه النيتشوي، المتخلق –على قدم وساق– بوتيرة متصاعدة، إلى فصم العلاقة الأزلية الوطيدة بين الخالق والمخلوق فصماً نهائيًّا حاسماً، تلك العلاقة التي حَدَّتْ عبر الأزمنة البشرية المتعاقبة من تغوّل الإنسان، وأوجدت لديه مقولات الخير الكابحة لشرّهِ المدجج بالذكاء، المقولات المتحدرة من الأديان السماوية، التي كانت –على الرغم من كل الخطايا البشرية، وعلى الرغم من كثرة النزاعات الأممية باسم الدفاع عن الدين الصحيح–عاملاً مُسعفاً للقوانين الوضعية في الحدّ من الجريمة، والتقاتل البشري. إن الأثر المترتب على تفشي (الداروينية الاجتماعية) بديلاً فلسفيًّا عن المعتقدات التقليدية كافة، يفضي إلى اكتظاظ هذا العالم بالوحوش الحيوية (البيولوجية)، والآلية المصنَّعة، بل يفضي إلى اكتظاظه بـ(الآلهة؛ الوحوش البشرية)، التي لا تملك (قلق الضمير)، ولا تفقه غير الجبروت المرتكز على القوة الفيزيائية المجردة، ولا كارثة تحل على الجنس البشري أكثر فجائعية من النهاية نفسها، وتحوّل الإنسان إلى (شيء ما)، في متحف التاريخ الطبيعي، كما حدث–ولو افتراضيًّا–مع القردة العليا.

تاسعاً: نماذج من السرديات الأسطورية للسنيما الهوليودية[٥٢]

بتحوّل (الكائنات) المسيحية الأمريكية إلى آلهة بروتستانتية، قادرة على صنع أقدارها، بحسب رؤيتها الوجودية (الأنطولوجية)، تتكرس –في نهاية المطاف–ثقافة حلوليّة كمونيّة واحديّة إلحاديّة، تسعى لأن تُغرقَ أمواجُها الثقافات البشرية في أنحاء العالم. وتستدعي المؤسسة السينمائية الهوليودية –بذرائعية فنية، وإيديولوجية– بنيات ثقافات السرديات الأسطورية القديمة، لتنتج نصوصاً سردية أسطورية حديثة، محكمة البناء القصصي، بأبطال وبطلات على مستوى رفيع من القوة والجمال، والاستعداد المدهش للتضحية، ونكران الذات، ومعززة بغطاء فلسفي من الداروينية الاجتماعية، وحيوي من الهندسة الوراثية، وتقني من الهندسة الألكترونية، لتحكي تحولات الإنسان المفترضة نحو تشكيلات حيوية عابرة للحقيقة

(٥٢) لا بد من التنبيه إلى أن المصدر الرئيس هو المشاهدة المتكررة للقنوات الفضائية المتخصصة، فضلا عن معلومات من مواقع على الشبكة العالمية، فليس ثمة مصادر مكتوبة تجمع هذا المنتج السينمائي الهوليودي الهائل، كما أن المنهج الأنثروبولوجي في توثيق السرديات البشرية يعتمد -كما هو معروف– على مبدأ أن (المصدر الأول) لأية حادثة إنسانية هو المعايشة، أو المشافهة، أو كليهما معاً، لأن الأنثروبولوجيا تعمل في الميدان، ليتشكل بعد ذلك (المصدر المكتوب الأول)، الذي هو في الحقيقة (المصدر الثاني) بعد الأول؛ (المشاهِد)، أو (المشافِه). وهذا ما حصل في توثيق السرديات البشرية كافة، بل هو عينه ما حصل في توثيق نشاطات بشرية أخرى، كسير عظماء التاريخ، و(معلقات الشعر العربي)، قبل أن تصل إلى عصر التدوين.

العضوية للجسد البشري، عن طريق الطفرات الوراثية، أو الاندماج بين المورِّثات البشرية، ومورّثات الكائنات الأخرى، أو التلقيح بكائن فضائي قادم من كواكب أخرى، لتصنع من هذا كله أعمالاً سينمائية درامية، بجودة فنيّة عالية، تجعل من المشاهد العالمي (يَسْعَد) بالمتابعة، بحيث تُخترَق طبقة اللاشعور لديه من دون أن يعي ذلك. فبينما يتبدى الفلم الهوليودي للمتتبع الخالي من الوعي المعرفي نصًّا سردياً قصصيًّا متدفقاً، بلا ضعف في الأداء، أو تدنٍّ في المستوى الفني، ساعياً للترفيه، والتسلية، يكون العقل الباطن، أو اللاشعور البشري قد بلع الطعم، وتشرب ثقافة التفوق الأمريكي، والإلحاد البنيوي الحلولي، بحصوله على قدر كبير من جرعات أيديولوجية مبشرة بعالم (ما بعد بشري) قادم، يتولى أبطال السرديات الأسطورية تقديمها بأبهى حلة فنية، ويتحصل ترسيخها بتكرار المشاهدة، والأساطير –علي رأي الناقد الفرنسي رولاند بارت– إنما هي ضروب الخطاب المُسيطر في الثقافات المعاصرة، وهي اللغة الواصفة التي تعمل بوساطة شفرات حاملة للمعنى، وتقوم بوظيفة إيديولوجية هي (التطبيع) (تشاندلر، ٢٠٠٨(433 :، وما يحدث –من فعل المشاهدة المتكررة– هو التطبيع بين الثقافة البروتستانتية بنسختها المعاصرة الحلولية الكمونية الواحدية الإلحادية، وجموع غفيرة من المشاهدين المتلقين العالميين، بحيث يمسي الجميع –كما هو مفروض– وقد استسلموا لبنيات الثقافة الأمريكية، من دون وعيٍ بأن الثمن المدفوع للمتعة الفنية الباذخة هو التغيير البنيوي العميق على مستوى الهوية، والمعنى، والعائلة، واللغة، وتقبّل طوعي لثقافة التهجين الحيوي (البيولوجي) القادمة، بما يرافق ذلك كله من تفكيك لبنيات الثقافات البشرية التليدة كافة. ويتطلب تحقيق هدف كبير التضحية بوسائل التفكير المنطقي في إيصال الرسالة، والتعامل بدلاً من ذلك مع الجنبة الغرائزية فـ((الحشود لا تفكر عبر البرهنة المنطقية، وإنما تفكر بالصور)) (بنكراد: ٦٢)، ما يعني أن الدلائل والبراهين ليست بمستوى الصور الجاهزة في إحداث الأثر المطلوب في الحشود الكبيرة. إن الصور الجاهزة هي التعبير الأقوى من غيره، عن الثبات، والأحكام النهائية (بنكراد، ينظر: ٦٢)، وهذا ما تفعله السينما الأمريكية، بغابتها الهوليودية المقدسة، ومدينة ملائكتها التائهة؛ لوس أنجلس، وبنجاح على مستوى سكان العالم.

بتواصل الإنتاج الهوليودي السينمائي للسرديات الأسطورية يتسارعُ تصنيعُ الثقافةِ الأمريكية الحلولية الواحدية الإلحادية في عقلِ المشاهدِ (البريء)، الباحثِ عن التسلية المحضة، لعالمٍ مستقبليٍّ فسيحٍ، مكتظٍّ بكائنات قوية وجميلة، متحولةٍ؛ (ما بعد بشرية)، أو (شبه بشرية)، كاسرةٍ، أو متجاوزةٍ لقوانين جسد الإنسان الحيوية. وبغض النظر عن إمكان حصول وعي ما من الناحية الفرضية، في لحظة ما للمشاهد العالمي، بحقيقة البعد

الإيديولوجي لسرديات هوليود الأسطورية السينمائية، فإن أثراً ما، ومن درجةٍ ما سيكون قد حدث لا محالة، ما استمرت المتابعة. وتتفاقم سيرورة التغيير الفكري من دون التفات لأي اعتراض أخلاقي قد يأتي من الكنيسة الكاثوليكية، والأرثوذوكسية، أما الاعتراض الإسلامي فلا يشكل أية قيمة حقيقية مؤثرة، بحكم التخلف الشامل الاقتصادي، والعلمي، والسياسي، والعسكري للحضارة الإسلامية.

في فلم (التفرّد والخراب)[٥٣]، وهو أحد سرديات هوليود الأسطورية، يجري حوارٌ بين أحد علماء التقانة المتطورة وآلته الذكية؛ (كورنوس)، التي صنعها لاستخدامها في تدمير العالَم، ومحو الجنس البشري من الوجود، بوصفه –كما يعتقد– مرضاً خطيراً؛ (سرطاناً) يهدد المسار الحضاري للكوكب، الآلة تسأل العالِم: مَنْ أنتَ؟ فيجيبها العالِم: (أنا خالقك، أعطيتك الحياة). وبينما كانت الآلة الذكية تعمل –في تلك اللحظات الافتراضية–على تدمير العالَم، والشروع بعملية إبادة جماعية للجنس البشري، جرى حوار بين هذا العالِم وزميل له في المختبر، الحوار ذو طبيعة فلسفية وأخلاقية؛ قال العالِم ردًّا على الزميل: (نحن نتخلص من الفصائل التي خلقتنا. البشرية هي السرطان الذي يجب أن يُمحى من جسد الأرض. لن يكون هناك عنف، ولا خلل نظامٍ. فقط السلام)، يضمر هذا النصّ اللساني النيتشوي السينمائي الخطير معضلة إيديولوجية كبيرة، تصل في مديات تأثيرها إلى مستوى تدمير مستقبل الجنس البشري، بمعنى منح شرعية إبادة البشرية إبادة جماعية لكل من لديه رأي بشأن الطبيعة الإنسانية، ويملك جرأة اتخاذ القرار، والقدرة العلمية على التنفيذ. فالقوة –على وفق الثقافة الأمريكية–تصنع الحق (باومان، زيجمونت، ٢٠١٤، ينظر: ٧٣). وبطلُ فلم (التفرد والخراب) عالِم فائق الذكاء، متمتع بإرادة كاملة تدفعه للقيام بـ(أعمال) إدراة شؤون الجنس البشري، ومن ثَمَّ الشروع على وفق تلك الإرادة بالقضاء المبرم على (عنف العالم) كما يزعم، بـ(عنف الآلة؛ كورنوس). أما المسوغ الفكري لعمل كهذا فهو تصحيح مسار البشرية التي تحدر منها؛ فنحن على حد قوله ((نتخلص من الفصائل التي خلقتنا)). والأمر كله يجري على وفق فلسفة نيتشوية اجتثاثية، فماهية العالم –على رأي فريدريك نيتشه، فيلسوف (النفي) الأخلاقي–إرادة القدرة الغالبة (نيتشه، ٢٠٠٣، ينظر:١٢٩). وفي الواقع الغربي السياسي المعيش لم يكن أدولف هتلر سوى النسخة التطبيقية الفعلية لمثل هذه الفلسفة، فالزعيم النازي هو (الإله الصغير) الذي كان يقرر موقع الأعراق البشرية في السلم الغذائي، مستنداً إلى القوة الألمانية الفيزيائية الفائقة.

[٥٣] فلم هوليوودي ظهر في: (٢٠١٧ – ٢٠١٨).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

قد يبدو لكثير من المشاهدين العالميين المتابعين للسينما الأمريكية من أصحاب النوايا الحسنة، (الكائنات البشرية البريئة) بأن حوارية فلم (التفرد والخراب)، مجرد تفصيل صغير محكي في سردية سينمائية، صنعت أصلاً من أجل الترفيه، والتسلية، ولكن الأمر –في رسالته النهائية–ليس كذلك[٥٤]، بل هو على خلاف ذلك، فليس ثمة موضع للنوايا الحسنة في هذا النوع من السرديات الأسطورية المبشرة بحقبة (ما بعد الإنسان)، لأنها نصوص لسانية وسيميائية أنثروبولوجية[٥٥] مبثوثة إلى العالم، ما يجعلها خطاباً بقصدية واعية لمنتج مؤدلج، وقد تكون في حين آخر خطاباً بقصدية غير واعية، أي (بنيوية) لمنتج غير معني بالأدلجة الثقافية، لكنه –انتبهَ أم لم ينتبهْ–مصداق مجسد لحضارته الأمريكية الغربية البروتستانتية، ما يعني أن الجميع، (أصحاب النوايا الحسنة، والسيئة) مشتركون في السعي لإذابة مقولة (الذات الإنسانية)، وتقويض البنى الثقافية الساندة لوجود حقيقة بشرية، جرت على وفقها أحداث العالم منذ فجر معرفة الإنسان بنفسه، وما هو بالأمر الغائب عن ذهن منتج سينمائي أمريكي، بثقافة بروتستانتية داروينية حلولية كمونية، أن يسهم نتاجه الفني الأسطوري بتشكيل موقف ما من (الحقيقة البشرية) في عقل المشاهد العالمي.

وكما أبدعت المؤسسة الهوليودية في تحقيق التفوق الفني، فإنها أبدعت كذلك في تفوقها الكمّيّ الواضح من حيث مقدار المنتج المعروض على الشاشة، فالأفلام الأمريكية يجري عرضها بشكل دائم في مئة وعشرة بلدان حول العالم (راضي، ٢٠١١، ينظر: ٤١)[٥٦]. وثمة مئة وستون شركة أمريكية كبرى تتولى عمليات التسويق (راضي، ٢٠١١، ينظر:٤١)[٥٧]، وهو رقم تجاري سينمائي كبير جدًّا بمعيار كونه في بلد واحد. ومن اللافت أن ثمة شكوى من تدفق الضغط السينمائي الأمريكي، لكنها لم تأت من بلدان ضعيفة متخلفة على المستوى العلمي، والاقتصادي، والسينمائي كبلدان العالم الثالث، أو بلدان الهوامش الحضارية بالمنظور الأنثروبولوجي الغربي للعالم، بل أتت من فرنسا، ومن أحد ساستها، المتمترسين بقوة الثقافة الفرنكوفونية، ولغتها، وثرائها الفني والسينمائي المعروف على مستوى العالم (راضي، ٢٠١١، ينظر: ٤٤)[٥٨]. ومردّ هذه الشكوى الحقيقي ليس الاعتراض على

---

[٥٤] الحلوى الرائعة التي يأكلها الإنسان، بوصفها وسيلة للترفيه والتسلية، قد تكون ذات أبعاد خطيرة على الجسد البشري، وقد تفضي به إلى الإصابة بفجيعة صحية، مع الأخذ بالحسبان النوايا الحسنة للشركات المنتجة.

[٥٥] اللغة -بحسب ماريو باي- كلُّ شيء ينقل المعنى من عقل إنساني لآخر(باي، ١٩٩٨، ينظر: ٣٥).

[٥٦] وثمة قنوات مجانية تعرض المنتج السينمائي الأمريكي على مدار الساعة، وهذا أمر لافت، وجدير بطرح الأسئلة.

[٥٧] ومن أشهر شركات التسويق: كولومبيا، وبارامونت، ومتروجولدن، ويونفرسال، والشركة الوطنية، وشركة نيت (راضي، ٢٠١١، ينظر:٤١).

[٥٨] و((قد شبه جاك لانج وزير الثقافة الفرنسي السابق في مقال نشرته جريدة لوموند القنوات التلفزيونية التجارية بأنها صنابير تدفق منها المسلسلات الأمريكية...وهذا يقتل السينما الفرنسية، بل إنه قتلها بالفعل

التوجه الفلسفي للسينما الأمريكية، بل التنافس اللغوي والتجاري الموجود داخل الحاضنة الحضارية الغربية بين التيار الأنجلوسكسوني المتفوّق الذي تقوده أمريكا، والتيار الفرانكفوني الذي تقوده فرنسا من دون أن تحقق تقدماً حقيقيًّا في مسعاها لنشر اللغة الفرنسية، ومنتجها السياسي، والثقافي (الطرفي)، المتمثل بما يسمى بـ(قيم الجمهورية الفرنسية)، وبخلاف ذلك فليس ثمة اعتراض أخلاقي ديني فرنسي عميق، على إعادة صياغة هذا العالم على وفق المنظومة البروتستانتية.

لا يمكن–في دراسة كهذه– الإحاطة التامة بالسرديات الأسطورية للسينما الهوليودية لكثرتها، فإنجاز هدف كهذا يتطلب كتابة مجلدات تحليلية كبيرة، يمكننا بها مواكبة تدفق المنتج المعروض على شاشات السينما، والقنوات الفضائية المتخصصة، ووسائل التواصل الاجتماعي، لذا سنكتفي بتحليل عدد محدود ممّا تقدمه السينما الهوليودية للعالم، لكنه كافٍ لبيان مضمون المعضلة القادمة التي ستحل بالجنس البشري. وسنتعمد في العرض التحليلي إغفال التسلسل الزمني للأفلام–على وفق قاعدة كسر التعاقب[٥٩]–بقصد إبراز حقيقة وجود بنيةٍ ذهنية للمنتج السينمائي الهوليودي، مناظرةٍ للبنية السينمائية؛ (اللسانية)، و(السيميائية)، تفعل فعلها منذ أكثر من قرن من الزمن بدون توقف، لأن هدفها الذي تسعى إليه هدف واحد لم يتغير، بل يتأكد مع مرور الزمن.

١–سردية سلسلة أفلام الحديقة الجوراسية؛ (Jurassic Park) ، والعالم الجوراسي؛ (Jurassic World)

سردية أسطورية شهيرة، من إخراج ستيفن سبيلبرغ؛ أحد أبرز مخرجي السينما الهوليودية. تحكي أجزاء هذه السردية قصة إنشاء (حديقة) سياحية خاصة بالكائنات المنقرضة، ولا سيما (الديناصورات)، في جزيرة نائية من جزر كوستاريكا. فبعد حدوث طفرة علمية كبيرة على مستوى الهندسة الوراثية –في أمريكا كما هي العادة–يتمكن علماء الأحياء من الحصول على المادة الوراثية الديناصورية من الحفريات، واستخدامها لتخليق عدد كبير من الديناصورات الحقيقية، بقصد وضعها في حديقة كبيرة مجهزة لتكون مزاراً سياحيًّا لمن يريد مشاهدة الكائنات المنقرضة. ويتم استنساخ عدة فصائل من الديناصورات عن طريق أخذ المادة الوراثيّة الخاصة بها؛ (الدنا)، أو الـ(DNA) من بعوضة متحجرة، محفوظة داخل

حيث-كذا- هبطت في الأعوام الأخيرة نسبة الأفلام الفرنسية من٥٠% من مجمل الإنتاج المعروض في دور السينما إلى٣٠% وعدد مشاهدي الأفلام السينمائية الفرنسية هبط من٨٠ إلى ٣٠ مليون مشاهد)) (راضي، ٢٠١١: ٤٤).

[٥٩] يقول بول ريكور: ((إذا ما قُيّض للوظيفة السردية، عبر نمط تقليديتها، أن تدّعي شيئا من الديمومة، لزم أن يستند ذلك إلى قيود لاتعتمد التعاقب الزمني، باختصار، هنالك ضرورة للعبور من التاريخ إلى البنية)) (ريكور، ٢٠٠٦أ: ٦٢).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

حجر قديم جدًّا، كانت –في الأزمنة الغابرة– قد امتصت شيئاً من دماء الديناصورات. ومع سيرورة أحداث الحديقة الجوراسية يفقد فريق العمل السيطرة على زمام الأمور، وهذا ضروري جدًّا من الناحية الدرامية، فتتحرر الديناصورات من محبسها لتنطلق في الجزيرة السياحية، ناشرةً القتل والدمار في كل مكان. وتستمر الأحداث في أجزاء السلسلة الأسطورية الخمسة على هذا المنوال.

يمنح الفلم المشاهد العالمي شعوراً بعالم قادم جميل، مفعم بوسائل التسلية، والألوان الزاهية، لكنه خَطِر منفلت، لا يمكن السيطرة عليه بسهولة. يرافق ذلك تراكم خبرات هائلة على مستوى القوة العلمية المختبرية لدى علماء الهندسة الوراثية، بحيث يبدو الأمر وكأن عمليات تهجين الكائنات الحية، والتلاعب المستمر بمورثاتها الحيوية أمرٌ سهلٌ، مكرر، متواصل، لا يتوقف، بل هو نشاط رتوبي (روتيني) يشبه دوري مباريات كرة القدم. وفي زحمة أحداث السردية الأسطورية، وجودة الإخراج الفائقة، يجري الخلط المتواصل لجينات الديناصورات، حتى يصبح الأمر مقبولاً جدًّا من المشاهد العالمي، فلا وقت للاعتراض الأخلاقي، أو إبداء الخشية من مستقبل حقيقي سيكون نظيراً لهذه الحبكة السردية السينمائية.

وتأخذ موضوعة التلاعب المذهل بالسلسلة الغذائية مدياتها القصوى، بحيث تجري في ضمن سير السردية الفلمية أحداثٌ خاصة بـ(ديناصور هجين)، يملك قدرات استثنائية في القتل والتخفي، لكنه –بسبب مزيج مورّثاته الحيوية– يصعب عليه تمييز موقعه في السلسلة الغذائية، فيتصرف بطريقة غير مألوفة في عالم الديناصورات. ويقول أحد أبطال السردية السينمائية معلقاً على ما يجري: (إنه يحاول اكتشاف موضعه في السلسلة الغذائية). وثمة في هذا النص (العلميّ) الكارثي تغييب مروع لقصة الخلق الإلهي، وما وضعه الباري جلَّ وعلا من غرائز في الكائنات الحية، تشعرها بحقيقة وجودها في هذا العالم. إن تقديم قضية الموقف من حقيقة (الديناصور الهجين) إلى المشاهد العالمي تبدو مرعبة جدًّا، فهي لم توكل أمره إلى الانتخاب الطبيعي، بل إلى (آلهة) بديلة بشرية هم علماء الهندسة الوراثية، الذين تجري على وفق إرادتهم العلمية –بسبب طريقة خلطهم للمورّثات الحيوانية–إعادة صياغة مواقع الكائنات الحية في السلسلة الغذائية، ما يعني أن (الخريطة الإلهية للوجود) قد أمست– بحسب الرسالة السردية الأسطورية–في ذمة التاريخ.

من الرسائل المخادعة، أو الكاذبة لهذه السلسلة الأسطورية إرسال علامات طمأنة سيميائية للبشرية في نهايات الأحداث، مفادها التبشير بإمكانية التعايش بين البشر والديناصورات، ليجري سلب أية إرادة عالمية ترفض تغيير شكل العالم. وفي واقع الحال تجري هذه السلسة الأسطورية عملية (تجنيد ثقافي قيمي لا شعوري) لمئات الملايين من

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

شباب العالم، الذين يشاهدونها، ويتمتعون بحبكتها الفنية الجميلة المتقنة، فلا قيمة بعد ذلك لاعتراض المعترضين من رجال الدين العالميين، ومن رجال الفكر، والسياسة، الحداثيين (الديكارتيين)، الذين ربما سيرفضون إجراء تغيير بنيوي على شكل العالم. فلا أحد من مئات الملايين من الشباب سيوليهم أي اهتمام، فما هم إلا رجعيون متخلفون، سطحيون من منظور نيتشوي، يعيشون في عصور التخلف والظلام. وفضلاً عن تمرير قضية التلاعب الوراثي (الجيني) بالسلسلة الغذائية، تجري عملية سحق متواصل للفواصل الطبيعية بين الأزمنة، فليس من الصعوبة على علماء الهندسة الوراثية استعادة الماضي (الجوراسي)، ونقله إلى الحاضر، والمستقبل، ويبدو هذا الأمر نوعاً من لعبة آلهة العالم المستحدثة المفارقة لإرادة الله الواحد الأحد.

يجري كذلك تمرير رسالة علمية خطرة في نهايات السلسة الأسطورية؛ في الجزء الخامس، فحواها التمهيد لقبول فكرة استنساخ الإنسان. وقد بُثَّت هذه الرسالة المخيفة وسط حشود الأحداث المتسارعة من دون أن تكون هي الموضوعة، أو (الثيمة) الرئيسة للقصة، ما يعني سلب قدرة المشاهد على التفكير فيها، لأن عقله سيكون مشغولاً بمتابعة (ثورة الديناصورات على البشر)؛ الحدث الرئيس للسلسلة الأسطورية. مضمون الرسالة المدسوسة قضية (فتاة مستنسخة)، تظهر على أساس أنها حفيدة أحد الأشخاص الفاعلين المهمين في السردية السينمائية، وهي فتاة خَيِّرة، ونقية، وجميلة، لكن الأحداث التالية تكشف حقيقة أمرها، لتظهر بأنها نسخة بشرية لابنة ذلك العالم الأحيائي (البيولوجي). وفي جو كهذا مفعم بالحركة والصراع، والتضحيات، ولأن (الفتاة المستنسخة) جميلة وصالحة ورقيقة، تتمكن الموضوعة كلها من التسلل إلى ما بقي من وعي المشاهدين العالميين، الذي سيكون في تلك اللحظات وعياً خالياً من أي رادع ثقافي قرآني، أو إنجيلي، أو أي رادع قيمي آخر.

إن علماء الهندسة الوراثية الحقيقيين لا يكتفون باستنساخ الديناصورات، كما هو الحال في الحديقة الجوراسية، بل يتطلعون لما هو أكبر، وأخطر من ذلك، ولنا في الدعوة العلمية الأحيائية لاستنساخ (إنسان النياندرتال) إشارة واضحة لحدث مستقبلي خطير. وقد يكون ما نتحدث عنه الآن –من استنساخ بشري–في هذه الدراسة اللسانية الأنثروبولوجية، يجري على قدم وساق في مختبرات عالمية سرية، تترقب اللحظة المناسبة لإطلاق منتجاتها التي ستغير وجه العالم، فلا يعود ثمة حاجة لعمالة وافدة رخيصة مُتَحَصّلة من مهاجرين فقراء شبه أميين، وليس ثمة حاجة للبحث عن جنود أشداء يعملون لحساب جيوش البلدان الحاكمة للكوكب، بل ربما لا تعود مختبرات علوم الأحياء، والطب والهندسة الوراثية بحاجة لإجراء تجارب على الحيوانات، أو المتطوعين، ثم نقلها إلى الحياة العامة، لأن البشر المستنسخين

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

سيكونون هم (فئران التجارب) القادمة، التي توفر عينات مختبرية أكثر جودة من الفئران، وتعطي نتائج مباشرة، ما يعني حذف حلقة واحدة (زائدة) من الاختبار.

البنية الثقافية المنتجة للسردية الجوراسية متحدرة من التطور المتسارع للهندسة الوراثية، وتحوّلها إلى سلاح بيد العلماء النيتشويين الساعين إلى ممارسة (الوظيفية الإلهية)، الذين لا يتورعون عن التلاعب–على وفق إرادتهم الخاصة– بسائر أجناس الكائنات الحية، ويعملون على إعداد الجنس البشري لحقول حيوية (بيولوجية) مستحدثة، ويعيدون صياغة شكل جديد للعالم، بغض النظر عن رأي الآخرين؛ (الضعفاء)، من المتدينين، والأخلاقيين، والرجعيين الثقافيين الإنسانيين. وثمة دائماً سلطة فيزيائية طاغية هي (الذكاء الصناعي)، وغطاء أيديولوجي نيتشوي دراويني هو نصوص (الفلسفة الأنثروبولوجية).

٢–سردية الرجل الفولاذي؛ (Man of Steel)

الرجل الفولاذي أحد أفلام السلسلة السردية الأسطورية للرجل الخارق؛ (سوبرمان؛ Superman). وُلد بطل الفلم في كوكب يُدعى (كريبتون)، وجاءت ولادته قبل عامين، أو ثلاثة من انفجار ذلك الكوكب، وفنائه الكامل. أما والد (الرجل الفولاذي) فهو العالمُ (جور–إل)، الذي تنبأ بقرب انفجار ذلك الكوكب، فوضع ولده الذي سيكون فيما بعد (الرجل الفولاذي؛ سوبرمان)، في مركبة فضائية، ووجهها إلى كوكب الأرض، بعد إمداده بقدرات خارقة للمألوف، ليصبح مثال القوة الفيزيائية، المعززة بحب الخير، والعدالة، ومحاربة الأشرار. وقد تمكن الأب (جور–إل) من إطلاق (المركبة الفضائية) قبل دمار كوكب (كريبتون) بوقت وجيز جدًّا. أمّا سبب اختيار كوكب الأرض فهو ضعف قوته الجاذبية مقارنة بنظيرتها في كوكب (كريبتون). انتهى الحال بـ(سوبرمان) الصغير بالهبوط على كوكب الأرض، فعثر عليه رجل أمريكي اسمه (جوناثان كانت)، وزوجته (مارثا كانت)، فتبنياه، وأغدقا عليه الكثير من الرعاية العائلية المميزة. وبينما كان (سوبرمان الصغير) ينمو، ويكبر، شرع باكتشاف قدراته الخارقة، التي تتفوق –كما هي العادة في السينما الأمريكية– على قدرات البشر. ثمة حياة خاصة لـ(سوبرمان)، يعيشها بصفة محقق صحفي عامل في جريدة (ديلي بلانت)، في حال عدم انشغاله بمحاربة الأشرار. استخدم (سوبرمان) حياة الصحفي غطاءً يساعده في حلّ مشكلة السيطرة على حياته المزدوجة، وإخفاء شخصيته الحقيقية. يحمل (سوبرمان) في حياته الصحفية اسم (كلارك كنت)، ويعيش في مدينة أمريكية خيالية تدعى (متروبوليس). أحبَّ الكائنُ الفضائي المتخفي زميلتَه الصحفية البشرية الشابة الأمريكية (لويس لين). يسعى (سوبرمان) للقضاء على الأشرار، والمجرمين، كيفما

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

كانوا، ولا يتوانى عن فعل ذلك، من أجل تحقيق العدالة بقوته المفرطة، التي لا تتلاشى، ولا تقبل الهزيمة.

يسعى هذا الفلم لبث فكرة التمكين على مستوى المجرات، وتذويب الانفصال بين الأجناس المفترض وجودها على المستوى الكوني، فلا مانع من زواج امرأة بشرية أمريكية، من كائن فضائي، يظهر في مجريات الفلم بهيأة رجل بشري. ولنا أن نتخيل التغيير البنيوي الحيوي (البيولوجي) المفترض الحاصل من اختلاط مورِّثات (الرجل)، أو الذكر الخارق الفضائي، بمورِّثات المرأة البشرية الأرضية، ما يعني تمرير فكرة نهاية عصر الإنسان، فلا يعود –من بعدها– وجود حقيقي لصلابة استمرار (الجنس الآدمي) في العالم، كما يظهر الفلم ارتباط تحقيق العدالة الاجتماعية بالقوة الفيزيائية المفرطة، وليس بالخضوع الطوعي للقيم الثقافية البشرية المشتركة بين الناس، لأنهم لن يعود لهم وجود أصلاً، عندما تتحقق النبوءة النيتشوية. ولكي تنجح فكرة الترويج للتطور الحيوي (البيولوجي)، والسماح بتمرير فكرة تغيير المورِّثات البشرية، فلا بد أن يكون سكان كوكب الأرض غير قادرين على حماية أنفسهم من كثير من المخاطر التي يتولى الكائن الفضائي؛ (سوبرمان) القيام بها. وبخلاف ذلك، أي إذا كان الإنسان بصيغته الحالية يتمكن من إحراز الفوز في نزاعات تحقيق العدالة على المستوى الكوني، فليس ثمة معنى لوجود مبدأ النشوء، والارتقاء، والانتخاب الطبيعي، والصناعي لكائن مرتقٍ أصلاً. ومما تمرره السردية الأسطورية أن الكائن القادم من الفضاء؛ (سوبرمان) لا يحتاج–وكما هي العادة– إلى طلب المعونة والمساعدة من الرب، أو السيد المسيح (ع) للقضاء على الأشرار، لأنه هو نفسه (كائن علوي)، أو أحد الآلهة القادمين من الفضاء.

البنية الثقافية المنتجة للنص قائمة على هدم الفواصل بين الأجناس، والتعامل مع فهم العالم بفلسفة حلولية كمونية، فالبطل النموذج الذي يرغب كثير من الناس بأن يحظوا بما لديه من قدرات مذهلةٍ كائنٌ فضائيٌّ علويٌّ قادمٌ من السماء، ولكن لا صلة له بالحقيقة الإلهية، لأن قوته كامنة فيه، وحالّة في كيانه الماديّ الخالص. وهو لا يعرف الضعف، أو المرض، أو الشيخوخة، أو الموت، ما يعني أنه تجسيد لإيديولوجيا علمية حيوية (بيولوجية) مبشِّرة بجنس مفترض جديد قادم، أو كائن من (الكائنات العليا)، أو (إله) من (آلهة) المستقبل.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

٣-سردية سلسلة أفلام أكس مان؛ (X man)

تحكي هذه السردية الأسطورية قصة جموع من البشر المتحوِّلين بسبب طفرات وراثيّة، جعلتهم يمتلكون قوى خارقة بأنواع شتى، تسببت في جعلهم كائنات حيوية (بيولوجية) مختلفة عن سائر الجنس البشري، ويرتبط هذا التحول بمورِّث، أو (جين) زائد يطلق عليه (المورِّث المجهول)، أو (الجين أكس). والمتحولون في نظر البشر الأصليين كائنات ممسوخة، غير مرغوب فيها، ويتسبب وجودها بنشر الريبة، والتوجس، ورفع مستوى الذعر في حياة الناس، ويَضعُ نشاطُها السلطات الحاكمة في حالٍ من القلق الدائم. ولا تخلو السلسلة الأسطورية من قضية الصراع بين الخير والشر بين حشود المتحولين المنقسمة إلى أخيار وأشرار، ولكن الرسالة الأساسية لهذه السلسلة السردية المبنية على نظرية التطور الطبيعي تكون قد وصلت، فالمشاهد الدرامية الآسرة بسبب جودة الإخراج، ومهارة الممثلين، وجمال الألوان، ومستوى التباين فيها، تفضي إلى تسلل المضمون التثقيفي الخطير -بدون مقاومة-إلى عقل المشاهد المستمتع بسيرورات الأحداث. ومن الرسائل العلمية التطورية ذات المغزى التبشيري مشاهد إمكانية العلاج الذاتي لدى الكائن المتحوّل، وهذا أمر مُغرٍ، فمَن مِن البشر لا يتمنى أن يشفى من أسقامه، وضعفه، وأمراضه من دون الحاجة إلى طبيب ومشفى. ويجعل هذا الأمر من التحول بالطفرات الوراثية، المعزز بتدخل الهندسة الوراثية سبيلاً لتحقيق السعادة، وقد مُررت هذه الرسالة بمشهد حقن أحد أبطال الفلم الرئيسين، وهو (وليفرين) بمعدن فضائي، يجعله يمتلك خاصية الشفاء الذاتي.

البنية الثقافية المنتجة للسردية الأسطورية متحدرة من مبدأ النشوء والارتقاء، وهي ساعية للتبشير بعالم ليس فيه حدود للقوة المادية، ولا يعرف أبطاله الضعف، أو المرض، أو الشيخوخة، أو الموت، ما يعني-وكما هي العادة-أنهم جنس مستقبلي جديد قادم، أو كائنات عليا، أو (آلهة) المستقبل، فالطبيعة ساقطة في قبضة الصيرورة، وتبقى المرجعية الكلية الفلسفية والعلمية؛ (الداروينية الاجتماعية).

٤-سردية سلسلة أفلام الرجل العنكبوت (سبايدر مان؛ Spider Man)

تحكي هذه السلسلة الأسطورية قصة الفتى (بيتر باركر)؛ وهو طالب أمريكي تقليدي، في المرحلة الثانوية، معجب منذ صغره بجارته الشابة الطالبة (ماري جين واتسون). يتعرض بيتر باركر -في مختبر علمي جامعي- للدغة من عنكبوت مُعالَج جينيًّا، فيكتسب قدرات خارقة نتيجة امتزاج المورِّث العنكبوتي المعدّل بالمورِّث البشري الطبيعي. وبذلك الحدث الحيوي (البيولوجي) تشرع مفاهيم الحياة المعتادة لدى بطل السردية (بيتر باركر) بالتغيّر، بسبب ما اكتسبه من قدرات حسية هائلة، لكنه يسيء استعمالها في بادئ الأمر، بسبب

الافتقار إلى الحكمة والتروي، فيتسبب بمقتل عمه؛ (بين باركر)، ثم يتحول بعد ذلك إلى بطل خارق صالح، بصيغة (رجل عنكبوت)، يخوض معارك ضارية لا هوادة فيها ضد البشر الأشرار الطالحين من كل نوع، ويدخل في معارك مصيرية مع كائنات شريرة جدًّا، ومنها مثلا كائن ناتج عن عملية انتخاب صناعي، متشكل من مزيج جسد بشري، ومادة كيميائية، يدعى (العفريت الأخضر)، يمثله والد صديقه (هاري أوسبرن)، وبعد معركة أسطورية طاحنة، تتعدد فيها الأسلحة إلى أقصى حدود التنوع، يتمكن الرجل العنكبوت من إحراز النصر النهائي المبين.

البنية الثقافية المنتجة للنص متحدرة من مبدأ تسريع التحول نحو (مرحلة ما بعد الإنسان) على وفق الانتخاب الصناعي، بالدمج بين الأجناس المختلفة، حتى لو جرى الأمر بين إنسان وحشرة، ما يفضي إلى الحصول على قدر هائل من القوة الحيوية (البيولوجية). وتُظهر هذه السردية الأسطورية –لكي تتمكن من اختراق طبقة اللاشعور لدى المشاهد– صراعاً ضارياً بين الرجل العنكبوت؛ (المُدمَج الخيّر) الناتج عن امتزاج حيوي بين الإنسان والعنكبوت، و(المُدمَج الشرير) المتشكل من الإنسان والالة، على طريقة (الحيوالة). ويعزز هذا المشهد كثيراً عملية ترويض المشاهد العالمي، الذي سيتمنى أن يحصل له ما حصل للبطل الخيّر المنتصِر في الصراع، غير المفتقر إلى الإله. ويؤذن ذلك كله بتمجيد انتهاء (مرحلة عصر الإنسان)، لأن البشر الحقيقيين في هذه السردية الأسطورية يظهرون بصيغة كائنات ضعيفة، بها حاجة دائمة لـ(كائن مدمج)، أو (معدل جينيًّا) ليقدم لهم العون والدعم والمساندة، فلا داعي إذن لاستمرار نوعهم في هذا العالم المتحوِّل، المبني على القوة الطبيعية الهائلة.

٥–سردية سلسلة أفلام الرجل الوَطواط (باتمان؛ Batman)

تحكي هذه السردية الأسطورية قصة (الرجل الوطواط؛ باتمان)، الشاب الاستثنائي، الذي يعيش بشخصيتين، كما هو شأن عدد من أبطال السرديات الأسطورية الهوليودية، الأولى؛ الشخصية السرية، الأسطورية، الغامضة، غير المكشوفة للغالبية العظمى من الناس، والثانية؛ الشخصية العلنية، المتجسدة بالشاب الفاحش الثراء؛ (بروس واين)، الفتى اللعوب، صاحب (شركات واين التجارية)، وفاعل الخير الكبير.

ولد بروس واين، أو (الرجل الوطوط) في مدينة غوثام، وهي مدينة أمريكية، خيالية، أو افتراضية. وكان رأى –في صغره– والديه، وقد قتلهما أحد لصوص الليل، فأقسم أن يحارب الجريمة أينما وجدت، وأن ينتقم من المجرمين جميعاً دون أن يصبح واحداً منهم، فلا يقتل، أو يغتال أحداً من سائر الناس مهما كان السبب، لأنه كرّس جهوده القتالية الفريدة من نوعها

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

لمكافحة الأشرار، والطالحين في العالم. وكان (بروس واين) قد تدرب على فنون القتال، وأعمال التحري المختلفة منذ صغره، وصنع لنفسه بِذْلة مستوحاة من هيئة الوطواط، الذي كان يمثل أكبر مخاوفه في صغره على الإطلاق. أما الاسم المستعار لـ(بروس واين)، فمستوحى من الوطواط أيضا. يتعاون بطل هذه السردية مع عدد من الشخصيات المهمة التي تقدم له شيئاً من المساعدة في صراعاته الضارية التي يخوضها ضد الأشرار، والطالحين، منها خادمه ومدبر منزله (ألفرد بنيوورث)، ورئيس شرطة مدينة غوثام؛ المفوض (جيمس جوردون)، وعدد من محاربي الجريمة الآخرين. ولا يتمتع (الرجل الوطواط) بكثير من القوى الاستثنائية الخارقة إذا ما قورن بأبطال السرديات الهوليودية الأخرى، فهو يعتمد على مهاراته التقنية، والقتالية العالية، والتكنولوجيا المتطورة، وذكائه الذي يصل إلى حد العبقرية، وقدراته التحليلية، وثروته الهائلة، وقوة إرادته، وهو –كما هي العادة الهوليودية–لا يعرف الهزيمة، ولا يمكنه إلّا أن ينتصر في أي معركة يخوض غمارها. ويبدو هذا البطل شبيهاً بأبطال حقبة رعاة البقر في الغرب الأمريكي، ولكن بشكل حديث مدعّم بمزايا تكنولوجية فائقة.

البنية الثقافية المنتجة لهذه السردية الأسطورية تستند إلى القابلية الذاتية للكائن البشري الراغب في تحقيق المستوى الخارق من السيطرة، والتحكّم بالأشياء، ومحاربة قوى الشر، من دون أن يطلب المدد من الإله الخالق، أو من السيد المسيح. تريد هذه السردية الأسطورية – في النهاية– القول بأن الإنسان الطبيعي، أو (المعياري) يمكنه أن يكون تجسيداً لإله من مستوى ما، حتى دون الحاجة إلى دمجه بشيء آخر، وهو مصداق –قد يكون أقل تطرفاً من غيره– لـ(الداروينية الاجتماعية).

سرديّات الألوهة المؤنثة الأسطوريّة

يتجه العالم، بدعم من الدساتير التي تكفل حرية المرأة، والمؤسسات المدنية الساعية إلى نشر ثقافة تمكينها، نحو استعادة حقبة (الألوهة المؤنثة)، التي شكلت –في عصور الديانات الوثنية– الرؤية الكونية (الأنطولوجية) للحضارات البشرية، عندما كانت أنانا السومرية، ونسخها المتعددة من مثل: عشتار البابلية، وسيزيف المصرية، وأفروديت الرومانية، النموذجَ الإلهي الأنثوي المُتسيِّد في حقول ما يقدسه الإنسان الوثني. وكانت ثقافة (البغي المقدسة) (السواح، ٢٠٠٢، ينظر: ١٨٥)[٦٠] جزءاً من هذه السردية الدينية الوثنية الموغلة في إضفاء القداسة على (البغاء)، أو الدنس البشري. وتسعى السينما الهوليودية في سردياتها الأسطورية، وغير الأسطورية لتسويق ثقافة المرأة العاملة، أو سيدة الأعمال التي تتمكن من

[٦٠] وينبغي التنبيه إلى أن الحديث عن (ثقافة تمكين المرأة) غير مستند إلى أيديولوجيا من أي نوع، بل هو بحث معرفي (إبستيمولوجي) بمنظور لساني أنثروبولوجي بحت.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

إدارة المؤسسات الكبرى، أو المرأة البطلة، التي تستطيع مقاتلة حشود من الرجال، بل وصل الأمر –على المستوى السردي الأسطوري خاصة–إلى نشر ثقافة المرأة التي تستطيع أن تكون مشروعَ إلهةٍ من إلهات المستقبل القادم، في ضمن عملية التبشير بـ(مرحلة ما بعد الإنسان). وكانت البدايات الأولى –على هذه السبيل– تتجلى بتسويق مفهومٍ جديدٍ للعائلة، بديل للنموذج المألوف في الثقافات البشرية، فقد صار يتشكل–مع الوقت– نموذجُ المرأةِ العَزَبة[٦١] التي تدير شؤون أولادها الذين ولدتهم سفاحاً من آباء متعددين .[٦٢]

إن سرديات السينما الهوليودية تسهم بالدفع المتواصل، عبر عشرات السنين، نحو إنجاز مهمة التغيير البنيوي للثقافات البشرية، بطرائق شتى، ولعل من أشدها تأثيراً صناعة الممثلات البطلات الأسطوريات المثيرات على مستوى الجسد والموهبة الفنية، اللواتي يداعبن نفوس الرجال، بل حتى نفوس النساء المصابات بالشذوذ الجنسي، أو بمشكلة ما في مقاييس الجمال الجسدي. وتضمر جميع هذه السرديات الأسطورية بنية ثقافية (داروينية اجتماعية)، داعمة لتحوّل المرأة –على الرغم من الضعف الحيوي (البيولوجي) – إلى قوة خارقة، أو (إلهة) تتمتع بالقدرة الفذة على تغيير مصير العالم. ومن تلك السرديات الأسطورية مثلاً: لوسي، والمرأة الخارقة، وسلسلة أفلام الشر المقيم.

١ –سرديّة فلم لوسي؛ (Lucy)

تحكي هذه السردية الأسطورية الخطيرة –مبشرةً بانتهاء عصر الإنسان– قصةَ فتاة أمريكية شقراء تُدعى لوسي، تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، تعيشُ –لغرض الدراسة– في تايبيه عاصمة تايوان؛ (الصين الوطنية)[٦٣]. وضعت عصابة آسيوية إجرامية في بطن لوسي –من دون علمها–كيساً مملوءاً بمخدرات من نوعية مبتكرة، وبمواصفات جديدة استثنائية مختلفة عن المألوف، لتقوم بنقله من بلد إلى بلد آخر. يحدث –أثناء احتجاز لوسي في سجن العصابة– تسرّب لبعضٍ من هذه المادة المخدرة إلى دمها بسبب شدة الضرب الذي تتلقاه من الخاطفين، وينتج عن ذلك التسرب العرضي تحوّل حيوي (بيولوجي) في جسدها الضعيف، وعلى مستوى خطير جدًّا.

---

[٦١] يقال: امرأة عَزَبٌ، وعَزَبةٌ، التي لا زوج لها. (ابن منظور: ينظر: ٢٩٢٣، مادة (ع، ز، ب)). وظاهرة (الأم العزبة)، أو (غير المتزوجة) شائعة في العالم الغربي.

[٦٢] ليس هذا هو النموذج الأخير، فثمة نماذج أخرى يُعمل على إشاعتها، والترويج لها، كالعائلة المتحدة الجنس، التي تتكون من ذكرين، أو أنثيين، والعائلة الثلاثية المختلطة، والعائلة التي تجمع الإنسان بالحيوان، أو الإنسان وكيان جامد كالروبوت المذكر، أو المؤنث. ومما تروج له الثقافة الأمريكية البروتستانتية (تدجين مبدأ العشير، أو العشيق السابق)، ففي تراجم المشهورات من النساء على منصة (ويكيبيديا)، على الشبكة العالمية، تذكر بعض المعلومات المتعلقة بالشخصية المترجم لها كالاسم، وسنة الميلاد، والعائلة، واسم الزوج، والأولاد، و(العشير).

[٦٣] تايوان: الجزيرة المنفصلة عن جمهورية الصين الشعبية (الشيوعية)، وهي ذات نظام رأسمالي، ومحمية بقوة التحالف مع أمريكا.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

يستخدم الإنسان –بحسب المعلومة التي تقدمها هذه السردية الأسطورية–ما يقرب من خمس عشرة في المئة من قدرته العقلية، لكن حادث التسرب غير المقصود، سَمَح لبطلة الفلم لوسي–في البداية– باستعمال أكثر من عشرين بالمئة من قدرة دماغها، ما جعلها إنسانة خارقة قادرة على استيعاب المعلومات بشكل فوري، ثم صارت قادرة على تحريك الأشياء ذهنيًّا، وعلى تحمل الآلام، والتحكم بالأجهزة الإلكترونية. كما أنها تفقد–بسبب تأثير هذه المادة المتسربة– سيطرتها على عاطفتها، ومشاعرها، وتقتل خاطفيها، وتهرب. ويُحاولُ رئيس العصابة الآسيوية قتلها، ولكنّه لا يستطيع. ولم تكن لوسي وحدها في الميدان، فثمة رجال أخيار معها، ومنهم المستشار العلمي الحيوي (البيولوجي) صمويل، الشيخ الأسود المنبهر بقدراتها الأسطورية. ومع سيرورة أحداث السردية الدرامية يستمر تنامي قدرة لوسي على استعمال العقل. ومع تلك الزيادة المفرطة يبدأ جسدها بالتلاشي، وتتحول إلى وجود غير مرئي بالعين البشرية، وتزداد قوة واستمكاناً حتى تصل إلى مرحلة القدرة على التحكم بالزمن، والطيران في الفضاء، ورؤية الكون في صورته الكاملة. وعندما تصل قدرتها على استعمال عقلها إلى مئة في المئة تختفي بشكل كامل، فيسألها أحد أبطال هذه السردية الأسطورية عن مكانها، فيتلقى منها رسالة على هاتفه المحمول، تقول: (أنا في كل مكان). تختتم لوسي أحداث هذه السردية بقولها: (إن الحياة منحت للإنسان منذ مليارات السنين، والآن جاء الوقت الذي يستطيع فيه الإنسان بنفسه تحديد ماذا يعمل في الحياة). وهذه المقولة الخطرة هي ملخص المضمون (الداروينى الاجتماعي) لهذه السردية الأسطورية، المبشرة –نظريًّا فنيًّا سينمائيًّا في أقل تقدير–بنهاية عصر الإنسان، وبداية (مرحلة ما بعد الإنسان).

تتجاوز البنية الثقافية المنتجة لـ(سردية لوسي) مبدأ الانتخاب الطبيعي، لتروّج لمبدأ الانتخاب الصناعي، وتغيير السلسلة الغذائية الطبيعية بالتدخل البشري الحيوي (البيولوجي). وتمثل مقولةُ: (أنا في كل مكان) المساوقةُ للحظة اختفاء لوسي عن الأبصار تحوّلَ البشر إلى آلهة، فالله تعالى هو الموجود في كل مكان، وهو الخفيّ عن الأبصار، ما يعني التبشير باللحظة الأخيرة القادمة لتجسد الإله في الإنسان.

إن هذه السردية الأسطورية السينمائية تسهم بقوة مفرطة في التبشير بنهاية عصر الإنسان. ولم تفتها قضية الترويج لحقبة سيادة الأنثى، التي انطلقت في المجتمعات الغربية مع التقبل التام لنموذج (الأم العَزَبة العاملة)، المستغنية عن الذَّكَر، كيفما كانت علاقته الاجتماعية بها. ومن المريب في القضية أن المركزية العرقية الغربية البيضاء، التي تسعى إلى تذويب البنى الثقافية الأزلية للعالم، تريد –في الوقت نفسه–الإبقاء على تفوقها المزعوم

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

في قائمة الأجناس البشرية حتى في حال الوصول الافتراضي إلى مرحلة ما بعد الإنسان، فثمة (هرم) نوعي لموجودات الكوكب العاقلة، تسعى الثقافة الغربية سعياً حثيثاً لتكريسه في كل حال، ليبقى (كائن ما بعد الإنسان الغربي الأبيض) المأمول انبثاقه هوليوديًّا في أقل تقدير، متربعاً على القمة النوعية للأجناس القادمة، كما ظل (كائن الإنسان الغربي الأبيض) متربعاً على نظيرتها الراهنة، منذ نشوء ثقافة تفوقه العرقي على سائر الأجناس. فالبطلة المتطورة الأسطورية؛ (لوسي) شابة، وآرية شقراء، أمّا المستشار العلمي الحيوي (البيولوجي) صمويل، فهو شيخ، وأسود من أصل إفريقي، ولا يبدو الأمر مصادفة، فالمستقبل التطوري معقود بالجنس الغربي الأبيض، أمّا الجنس الأسود المنبهر بما تنجزه لوسي، فهو الماضي المرشح للزوال والانقراض ولو بعد حين، ما يعني السعي الحثيث –بدون توقف– لتكريس موضوعة الإنسان المتفوق الآري، أو (إنسان العرق الأبيض)؛ وهذا التفوق هو الهدف غير المعلن لكنائس البروتستانت البيض، حتى مع التبشير بنهاية عصر الإنسان التقليدي؛ (الأبيض والأسود)، التي يفترض بها نظريًّا إنهاء النزعات العنصرية التقليدية. على أن متطلبات التسويق، وحساب جني الأرباح من الدوافع التجارية المهمة التي تستدعي أحياناً وجود أبطال من السود والآسيويين، وهذه تنويعة في السياق العام ليست ذات أثر يذكر في سيرورة الأحداث.

٢–سردية فلم المرأة الخارقة؛ (Wonder Woman)

تحكي هذه السردية الهوليودية قصة أسطورة (ديانا)؛ أميرة نساء الأمازون[٦٤]، لكن الأحداث برمتها تدور إبّان الحرب العالمية الأولى. يبدأ الفيلم بسرد قصة حياة (ديانا) أثناء طفولتها، وصباها، ونشأتها في جزيرة نائية، مخصصة لسكن النساء، معزولة بمجال فيزيائي صنعه (الإله زيوس)[٦٥] لإخفائها عن سكان العالم، أمّا ملكة الجزيرة فهي أمّها (الملكة هيبوليتا). تتدرب النساء على هذه الجزيرة باستمرار على القتال، باستخدام السيوف، والرماح، والسهام، لاعتقادهن بأن يوماً ما سيظهر إله الحرب (إريس) وهو الابن الخارج عن طاعة أبيه الإله (زيوس)، أما هدف (إريس) فهو إنهاء حياة البشر على وجه الأرض، ولأجل ردعه، والحيلولة دون تحقيقه الهدف، أوجد والده (زيوس) هذه الجزيرة وسكانها–وهُنَّ نساء الأمازون– لقتاله، والحدّ من شروره الموجهة إلى البشر. تستمر الحياة بشكل طبيعي وتتكفل خالة (ديانا) بتدريبها، حتى وقت ظهور طائرة حربية تقع داخل البحر، يقودها (ستيف تريفور)؛ الطيار الأمريكي العامل لحساب المخابرات البريطانية، في الحرب العالمية الأولى.

---

[٦٤] ربّة الصيد، والقمر، وحامية الطفولة والحيوانات، في الأساطير اليونانية والرومانية (سلامة، ١٩٨٨، ينظر: ١٦-١٨، و ١٩٢). والأمازونيّات: شعب من النساء المحاربات (سلامة، ١٩٨٨، ينظر: ٤٢).

[٦٥] حاكم العالم، ورئيس سائر الآلهة والبشر (سلامة، ١٩٨٨: ٢١١).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

وفي هذا المشهد يحصل الدمج بين العوالم، فلا حدود فاصلة بين الأزمنة، ولا بين الأمكنة. ما يعني الإسهام في تذويب المزيد من مصاديق الفكر التناظري. كان (ستيف تريفور) أول رجل تراه الأميرة (ديانا) في حياتها، فانطلقت سباحةً لإنقاذه، لكنه لم يلبث إلّا قليلاً حتى لحق به الجنود الألمان، لتشتعل بذلك الحرب بينهم وبين المحاربات الأمازونيّات، اللواتي – على الرغم من أسلحتهن البدائية–يحرزْنَ الانتصار في نهاية المعركة.

أخبر الطيارُ (ستيف تريفور) الأميرةَ (ديانا) بما يجري من حروب في عالمه الواقعي، أو الطبيعي المعروف، فتذكرت الموضوعة المتوارثة التي تنذر بوجود قوى شريرة تريد إنهاء حياة الجنس البشري، أي إن النبوءة الخاصة بـ(إريس بن زيوس) قد شرعت بالتحقق في الحياة الواقعية للعالم. فقررت أن تنطلق سريعاً بصحبة زميلها الطيار (ستيف تريفور) إلى لندن لمقابلة (إريس)، المتجسد –في تلك الظروف العالمية–بشخصية بشرية، لكي تخوض ضده صراعها الأسطوري المميت. تقتل الأميرة (ديانا) –في نهاية الصراع– (أريس بن زيوس) بسيف خاص متحدر من زمن أبيه الإله (زيوس)، غير خاضع لقوانين الفيزياء المعروفة، وبذلك يعم السلامُ العالم كله.

تتسلل الثقافة الوثنية الأغريقية والرومانية إلى المشاهد العالمي، الذي–ربما– لا يعرف شيئاً عنها، وتترسخ في لاوعيه، لتأثث ذاكرته، المشغولة بمراكمة مشاهد السردية الأسطورية المبهرة، ونمط حياة النساء الأمازونيات. ويجري ضخ هذه الثقافة الوثنية بإخراج سينمائي فائق الجودة لهذه السردية، وباختيار ممثلات فائقات الجمال، والطبيعة البشرية تميل–من منظور أنثروبولوجي– لتقبل الأشياء، والأفكار إذا كان مصدرها كائنات حيّة جميلة. من باب آخر تظهر التقنية الحاسوبية بقوة مذهلة في صياغة مشاهد السردية الأسطورية. وبذلك يتحضر عقل المشاهد العالمي –من حيث لا يدري– للقبول بفكرة تعدد الإلهة، وتجسدها في أشكال بشرية محسوسة، في مقابل تذويب مبدأ الإله الواحد الأحد، وشطب فكرة حضور الأنبياء في الذاكرة الجماعية لأجيال من شباب العالم الغربي، والشرقي، ما يسهل فك الارتباط بالمعتقدات الدينية، ومنظوماتها القيمية الأخلاقية. ويجري ذلك كله من دون أي مراجعة منطقية لمجريات السردية الأسطورية، ومن دون الاهتمام بأي خرق لقوانين الزمان والمكان. ومن أجل زيادة تنشيط حركة (شباك التذاكر)، وإخراج المال من أي جيب بشري على وجه الأرض، فلا بأس بوجود بعض الأمازونيات السمراوات في خلفيات بعض مشاهد السردية الأسطورية.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

البنية الثقافية المضمرة تكريس قوة المرأة بوصفها كائناً قابلاً لأن يكون إلهاً، أو إلهةً تستطيع تغيير مجرى أحداث العالم، ما يعني وجود خط تطوري أنثوي على المسار الداروينى للكائنات الحية، فضلا عن تفكيك منظومة الأديان السماوية التوحيدية باستعادة الوثنية الإغريقية والرومانية الغابرة، والعمل الهوليودي الدؤوب على تبيئتها في الزمن الحاضر، فلا تعود شيئاً مستنكراً، أو حجر عثرة أمام أي إعادة تشكيل لطبيعة هذا العالم.

٣-سردية سلسلة أفلام الشر المقيم (Resident Evil)

تحكي سردية هذه السلسلة الأسطورية الهوليودية قصة المرأة الأمريكية الشابة: (أليس)، وهي شخصية خيالية، مهمتها الرئيسة القضاء على مؤسسة (أمبريلا Umbrila)؛ الشركة الافتراضية المتخصِّصة بصناعة الأدوية. تأُسست (أمبريلا) في العام ١٩٦٢م، بعد نجاح أحد العلماء الأمريكان باختراع أول (فايروس مدمر)، أطلق عليه اسم (الفايروس تي -T Virus). تقبع هذه الشركة تحت (مدينة راكون Raccoon City)، وهي مدينة افتراضية، من مدن الغرب الأوسط الأمريكي. تقوم شركة أمبريلا بدراسة الفيروسات وتطويرها لأبحاثها السرية الخاصة بتصنيع (الأسلحة العضوية)، التي يمكن استخدامها في الحروب الحيوية (البيولوجية)، في مختبرات الهندسة الوراثية التابعة لها. ومن مزايا هذه (الفيروسات المصنعة) القدرة على تحويل الحيوانات والنباتات إلى وحوش مرعبة، كما أنها قادرة على تحويل البشر إلى (موتى الأحياء)، أو (زومبي)؛ ([٦٦])(Zombie. ويتفشى الفيروس مع سيرورة أحداث السردية، فتعم الفوضى في (مدينة راكون)، ويسود الاضطراب، فتضطر حكومة الولايات المتحدة إلى توجيه ضربة صاروخية نووية ضد (المدينة) المنكوبة من أجل احتواء الخطر المهدد بالانتشار، لكن الأمر خرج عن السيطرة، فعلماء أمبريلا قاموا فعلا بنشر عدوى (الفايروس تي؛ T-Virus) على وجه الأرض، وحولوا جميع سكان العالم إلى موتى أحياء؛ (زومبي).

تجد بطلةُ السلسلة الأسطورية؛ الشابة الأمريكية؛ (أليس)، نفسها في صميم هذه الأحداث المتسارعة، وهي -بسبب تعرضها لعمليات التلاعب الجيني في مؤسسة أمبريلا- تعاني من فقدان الذاكرة، لكنها تصبح -مع الوقت-الشخص الأكثر دراية بالأوضاع المحيطة بها من أي شخص آخر يشاركها أحداث السردية الأسطورية. وتظهر بقوة مفرطة وحضور طاغٍ، لا يتناسبان والمألوف الحيوي (البيولوجي) عن القدرة الجسدية للأنثى البشرية. تشرع الشابة المقاتلة (أليس) بمكافحة شرور شركة أمبريلا في كل مكان تصل إليه، وتخوض ضدها حرباً لا هوادة فيها. وقد صُورت (أليس) في السردية الأسطورية على أنها آلة صلبة

([٦٦]) تستخدم الثقافة الأمريكية مصطلح (زومبي) في الإشارة إلى الموتى الأحياء، أو الجثث المتحركة في أفلام الرعب الأمريكية، التي تقوم ببث الرعب، ونقل الأمراض، وقد تتسبب بالقتل.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

للقتل، والقتال بجميع الأسلحة التي يمكنها الوصول إليها، فضلاً عن القتال بحركات الجسد المجرد. وكان ثمة أشخاص من الأخيار معها، من الذين يشاركونها هدف تقويض شركة أمبريلا، والقضاء عليها. مع سيرورة الأحداث تتعرض بطلة السردية الهوليودية لتجارب حيوية (بيولوجية) متنوعة، من مثل الاستنساخ البشري، والتلاعب الجيني، لكنها لاتتغير من حيث الانحياز إلى عالم الخير والعدالة، على الرغم من جميع محاولات التدجين الحيوي (البيولوجي) التي يقوم بها علماء الأحياء الأشرار، الطامحين إلى السيطرة على العالم.

البنية الثقافية المنتجة للسردية الأسطورية الهوليودية تمهيد الطريق للقبول بما يمكن أن تفعله الهندسة الوراثية بالكائن البشري، فمع أن السلسة الأسطورية تختتم أحداثها بوقف انتشار الفايروس، وآثاره الوخيمة، ونهاية شركة أمبريلا، وسقوط زعمائها، وبدء العالم بالتعافي من الوباء، إلا أن الهدف غير المعلن، أو غير المخطط له –على افتراض حسن النية– قد تحقق فعلا، وهو العمل الدؤوب على تحضير الوعي البشري لتقبل أية طفرة علمية في حقول (الهندسة الوراثية).

كما يجري تسويق عصر الألوهة المؤنثة، ولكن ليس بطريقة فجة، أو مدائحية، على الطريقة التي درجت عليها ثقافة عصر الحداثة الديكارتية التي ظلت تنادي بـ(تحرير) المرأة، بوصفها نصف المجتمع، بل بالتسلل البطيء الذكي لـ(طبقة اللاشعور) لدى أجيال من شباب العالم. يحصل ذلك عندما تُسوّق شخصية امرأة جميلة قادرة على إنجاز ما تعجز جيوش العالم بأسرها عن القيام به، فالشابة الطيبة الصالحة (أليس) لم تهزم في أي معركة خاضت غمارها، ولم تقف الأسلحة العاتية بوجهها، كما أنها ظلت تتصرف بنقاء، وفروسية، ونكران ذات على مدار أحداث السردية الأسطورية، بحيث بقيت تبدو أقرب إلى الكمال في كل شيء. وبهذه الطريقة يتجلى –بقوة مفرطة– الخط التطوري الأنثوي على المسار الداروينى للكائنات الحية، كما يجري تفكيك منظومة الإيمان المسيحي، بل كل منظومة توحيدية أخرى على وجه الأرض، فلا يوجد –كما هي العادة في هذه الأساطير الهوليودية– أي استعانة بالإله، أو السيد المسيح، أو السيدة العذراء، وإن ظهرت كنيسة في مشهد من مشاهد السرد الأسطوري، فبوصفها ساحة معركة ضارية بين (أليس) وفريقها من جهة، ومجموعة من الكائنات الشريرة الناتجة عن التلاعب الجيني من جهة أخرى.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

عاشراً: الأساطير الهوليودية والفلسفة الحلولية؛ خلاصة معرفية بنيوية:

يقول د. عبد الوهاب المسيري: ((يصدر فكر حركة الاستنارة، باعتباره فكراً عقلانيًّا ماديًّا، عن رفض فكرة المركز المتجاوز للنموذج والواقع، والإصرار على أن المركز موجود؛ (حالٌّ) في المادة ذاتها. ومن ثَمَّ لا تصبح الحقيقة أمراً مفارقاً للعالم (الطبيعة والإنسان)، وإنما تصبح أمراً كامناً فيه، أي في طبيعة الأشياء (وليس مرسلاً من إله))) (المسيري، ٢٠٠٢: ١/٣٠٠) فالمركز المتجاوز للواقع هو الله سبحانه، وفكر حركة الاستنارة –بحسب العقلانية المادية ذات المرجعية الهوبزية– يتجاوز هذه الفكرة، ليؤمن بأن حقيقة الشيء كامنة فيه، ومن هنا جاءت أقوالنا أن الرجل الخارق؛ (السوبرمان) لا يحتاج إلى الإله، ولا يتوكل عليه، والرجل العنكبوت؛ (سبايدرمان) يلجأ إلى الانسجام الجيني بينه وبين العنكبوت، والمرأة الخارقة تتصرف على أساس كونها إلهةً مكتفيةً بذاتها، ولا تحتاج (أليس) المرأةُ المعدَّلةُ جينيًّا لطلب العون، أو المدد من السيد المسيح، أو السيدة العذراء. وعلى طريقة هؤلاء الأبطال الأسطوريين يتصرف الإنسان الغربي البروتستانتي، ذو الثقافة الداروينية الاجتماعية، فهو لا يحتاج إلى الإله، أو السيد المسيح، ولا يحتاج إلى الدعاء، لأنه يظن أن إنجاز الشيء كامنٌ في كينونته الشخصية، وفي إرادته الخاصة، وقدراته الجسدية، التي منحتْه (الطبيعةُ) إياها كما يعتقد اعتقاداً يقينيًّا بذلك. والرجل الوطواط (باتمان)، الذي قد لا يتمتع بقدرات خارقة، غير بشرية، ظاهرة جدًّا هو الآخر ليس به حاجة إلى استمداد القوة والعزيمة من مصدر خارج عن كينونته هو، فقوته حالّة فيه، ومستمدة من إرادته الخاصة. ولمّا كان الناس لا يملكون هذه القوى الخارقة عبر التاريخ البشري، فإن السعي إلى ذلك مرهون بسقوط الإنسان في قبضة الصيرورة الحيويّة (البيولوجية)، التي ستقوم فرضيًّا بإنجاز المهمة المستحيلة عندما تتمكن الهندسة الوراثية من إحلال الانتخاب الصناعي محل الانتخاب الطبيعي، ليتحقق الحلم النيتشوي في الانتقال إلى (مرحلة ما بعد الإنسان)، ما يعني أن العالم –بالبناء على هذه الفكرة المُتصَوَّرة–يترقبُ حصولَ الكارثة العظمى، في ظل زعامات فلسفية أنثروبولوجية، وعلمية حيوية، وسياسية مستحدثة قادمة، ستعمل بطرائق قهرية شتى على إخضاع الجنس البشري طوعاً، أو كرهاً لأنواع جديدة من الطغيان، ربما لم تر البشرية مثيلاً لها عبر التاريخ.

حادي عشر: محاولة صياغة مقولات استشرافية تحذيرية من عالم قادم :

يقول يوفال هراري: ((قبل سبعين ألف سنة، كان الإنسان العاقل ما يزال حيواناً لا أهمية له يدير شؤونه الخاصة في زاوية من أفريقيا، ثم حوّل نفسه في الألفيات التالية إلى سيدٍ للكوكب بأكمله ورعبٍ للنظام البيئي. وها هو يقف اليوم على حافة أن يصبح إلهاً؛ لا يستعد للاستحواذ على الشباب الخالد فحسب، بل وكذلك على القدرات الإلهية للخلق والتدمير)) (هَراري، ٢٠١٨: ٤٩٥). يبثّ هذا النص –بغض النظر عن مدى ارتباطه بالحقيقة الخَلْقية للإنسان–رسالةَ عن إرهاصاتِ التحولات الكبرى المراد تحقيقها بشأن مستقبل الجنس البشري. ومن السذاجة الاعتقاد بأن عبارة (وها هو يقف اليوم على حافة أن يصبح إلهاً) تعني كل إنسان على وجه الأرض، فالتطور الذي يبشر به النص، لا يمكن أن يمنح (قدرات الخلق والتدبير الإلهية) لسبعة مليارات إنسان، فليس ثمة مكان في الكوكب لقدرات خلقية وتدميرية لسبعة مليارات (إله)، ما يعني أن مبدأ الانتخاب الصناعي سيكون حقًّا حصريًّا لعدد محدود من ذوي السلطة العلمية، والاقتصادية، والتوجه الإيديولوجي الداروينيي النيتشوي، ذي الجذور البروتستانتية الحلولية الكمونية الواحدية، ولمن يملك حق الدخول في التصنيف الشهير؛ (شعب الله المختار)، فـ(المختارون) هم الجديرون بالتطور، والتحوّل إلى آلهة مستقبلية. وبذلك تتكون قسمة طبقية (نيتشوية)[٦٧] مريعة، قادمة، سيسير عليها العالم، تتشكل من (صفوة ذهبية) قليلة حاكمة، تملك أقوى مقاليد القوة، والاستحواذ، والسيطرة، والتمكن، و(أكثرية دهماء) وظيفتها أن تكون (فئران تجارب)، أو مادة استعمالية لمختبرات التلاعب بالكائنات الحية، في حال سُمِح لها بالبقاء على قيد الحياة. ويتطلب الشعورُ بالمسؤولية الفكرية –من منظور لساني أنثروبولوجي– تجاه الحقيقة البشرية المُهَدَّدة –ولو نظريًّا–بالانقراض، إظهارَ طبيعة الخطر الاستئصالي القادم، على خلفية أن تحقيق (الداروينية الاجتماعية)، ولو تحقيقاً جزئيًّا، لأهدافها المعلنة، ما هو إلا نذر شؤم في وجه أي توجّه بشريٍّ نحو عالم يسعى إلى نشر السلام، والإخاء، والمساواة بين الأعراق، لأن وصول (الداروينية الاجتماعية) الافتراضي إلى لحظتها الأخيرة في التاريخ، لن يجعل من هذا العالم سوى المسرح الذي يشهد الفناء المبرم للجنس البشري. ولأجل إنجاز هدف معرفي (إبستيمولوجي) مهمّ من منظور لساني أنثروبولوجي، تحاول هذه الدراسة صياغة مقولات استشرافية محذرة للبشرية من تحولات بنيوية ثقافية قادمة، وهادمة، فقد أوشكت ثنائية (الخير

---

[٦٧] لا يؤمن نيشته بالديمقراطية والمساواة بين البشر، جاء في نص سابق من هذه الدراسة: ((نحن الذين ندين بغير دين، نحن الذين لا نعدّ الحركة الديمقراطية صورة من صور الانحطاط في التنظيم السياسي وحسب، بل صورة انحطاط الإنسان، صوره تصغّره، تجعله وسطيًّا وتحط من قيمته)) (نيتشه، ٢٠٠٣: ٢٠٣).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

والشر) على أن تخرج خروجاً نهائيًّا واقعيًّا من الفعل الثقافي البشري المتداول، بحيث بات يعسر على الناس حتى في الثقافات البشرية التقليدية الموروثة، بل في الثقافة الواحدة منها، الاتفاق على دلالة واحدة لتلك الثنائية العظيمة، ليحل بدلاً منها مقولات موغلة في التوحّش الدلالي، من مثل: (القدرة والاستطاعة)، و(البقاء للأصلح)، و(صراعات تحصيل المكاسب)، بشكل لافت لنظر أي باحث مُنقِّب في دراسة أعماق أزمنة الحضارات البشرية. ويحصل ذلك بسبب امتداد العالَم الأمريكي البروتستانتي امتداداً ثقافيًّا، وسياسيًّا، وعسكريًّا خارج الحدود السياسية للولايات المتحدة، محوّلاً–بهذا الامتداد– ثنائيات الفكر التناظري البشري إلى جزء من ذاكرة ثقافية مركونة في (متاحف اللسانيات التداولية القديمة).

إن منجز (الداروينية الاجتماعية) الافتراضي الخطير القادم –بعد أن بدأت بالتمكن من نفي حقبة الحداثة الديكارتية، وما عَلِقَ بها من بقايا العقيدة الكاثوليكية – هو الوصول إلى حقبة (الإنسان الإله) الأمريكي، المستغني عن كل شيء في محاولة فرض إرادته على العالم، وهو إله أبيض، ذي مرجعية عرقية آرية، حتى لو دُمِج بجينات من كائنات فضائية. وعلى هذه السبيل ستعمل الفلسفة اللسانية الأنثروبولوجية الحلولية الأمريكية جاهدةً لتُنجِز عدداً من الأهداف الكبرى المهمة، التي ينبغي التحذير من تكريسها واقعاً بنيويًّا صُلباً على مستوى العالم، ومنها:

–التهميش النهائي للأيديولوجيات الكبرى، وقد حصل ذلك للماركسية، والإيديولوجيات القومية، ويحصل الآن للإسلامية الشيعية، والسنية، والسلافية الروسية الأرثوذوكسية، والكاثوليكية اللاتينية، والصينية الكونفوشيوسية.

–دسترة لائحة حقوق الإنسان على مستوى كوكب الأرض، وهي عمليةٌ متواصلةٌ، وزاحفةٌ، وآكلةٌ للمزيد من ثقافات الجنس البشري، لينتقل الأمر –بعد ذلك–إلى سنّ مبدأ حقّ التدخل الأمريكي والغربي في الشؤون الاجتماعية الخاصة على مستوى العائلة الصغيرة (النووية)، ثم ينتقل الحال إلى مبدأ (حماية) الحق الشخصي في ممارسة التعديل الوراثي (الجيني).

–إلغاء مفاهيم ثقافية ذات منحى ديني ورعي، درجَتْ عليها البشرية منذ فجر وجودها العاقل على هذا الكوكب، من مثل التراحم الأسري، وبر الوالدين، واحترام الكبير، والنظرة الدونية لمرتكب الزنا، والإحسان إلى الفقراء، والمحتاجين، لأنها –وأمثالها– تشكل عدداً من المعوّقات الثقافية (المتخلفة) أمام سعي (الداروينية الاجتماعية) لتغيير العالم، ليحل بدلاً منها مفهومُ الفرادنية المطلقة، غير المقيدة بدين ثقافي، أو مرجعية تراحمية قديمة. ويساوق هذا التوجه الدفعُ بالتدجين الثقافي للمشاعية الجنسية، لتمسي ممارسة الزنا بأنواعه نوعاً من الحرية الشخصية، وفعلا حيويًّا (بيولوجيًّا) مكفولاً بـ(الحقّ الطبيعي) حتى قبل أن يكفله

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

(الحق القانوني)، فالإنسان كائن طبيعي واقع في قبضة الصيرورة. وسيجري إقرار هذه (المشاعية الجنسية) على مستوى دساتير العالم.

–التفوق التكنولوجي النهائي على سائر بلدان العالم، لاسيما اليابان، وروسيا، والصين، بشكلٍ لا يسمح باحتمال حدوث منافسة قادمة.

–التمادي في نشر ثقافة تسويق الجسد البشري، الأنثوي، بوصفها معطى قطعيًّا، ونهائيًّا غير قابل للنقد والمراجعة.

–السعي الحثيث نحو تحقيق هدف السفر الى المريخ الذي سيولد ثقافة (الاستمكان في الكون)، ليصبح الاستمكان في الأرض شيئاً من التاريخ.

–الدفع المتواصل على مستويات الوعي البشري كافة بثقافة ضرورة الخلاص من مشكلات ضعف (الكائن البشري) الجسدية، بإنهاء عصر الإنسان، والانتقال إلى عصر آخر، فما دامت (مرحلة القردة العليا) مرحلة متدنية، غير كافية للحصول على مكانة سامية في هذا العالم، ومادامت (المرحلة الإنسانية) مثخنة بضعف القدرة في مواجهة تحديات العالم الطبيعي، والأمراض القديمة والجديدة، فمن الجيد، بل من المطلوب بالضرورة– على وفق الرؤية الدروينية الاجتماعية–العمل على الانتقال إلى (مرحلة ما بعد الإنسان)، أو التحول إلى (مرحلة الآلهة)، فـ(الآلهة) وحدها هي التي تشعر بالسعادة، والاستقرار الوجودي (الأنطولوجي).

ثاني عشر: خاتمة

تبدو (المرويّة الأمريكية الكبرى)[٦٨] مُربِكة معرفيًّا (إبستيمولوجيًّا) لأول وهلة، لأنها تجمع –كما بينت الدراسة–بين عقيدة مسيحية معدَّلة تعديلاً بنيويًّا، لكنها مسيحية في نهاية الأمر من جهة، والمآلات الداروينية والنيتشوية للجنس البشري من جهة أخرى، وهي تفعل ذلك بقصد، وتعمدٍ مؤسسيٍّ أمريكي لتحقيق تأليه الإنسان البروتستانتي الذي يريد (مضغ العالم) بطريقة لم يفعلها أدولف هتلر في الحقبة النازية من التاريخ الألماني، ولم يفعلها جوزيف ستالين في الحقبة الشيوعية الروسية، ولم تفعلها الأمبراطوريات الكبرى في الأزمنة السالفة، فكيف يتأتى لها ذلك، بمعنى كيف يمكن لـ(المرويّة الأمريكية الكبرى) الجمع بين تلك (التناقضات الرؤيوية) للوجود ببعديه الطبيعي وماوراء الطبيعي، في بنية ثقافية أنثروبولوجية واحدة، من دون شعور باغتراب الذات عن الموضوع، والوجود عن الماهية(حسيبة، ٢٠٠٩، ينظر:٧٥)[٦٩] ؟

---

[٦٨] يقول إدوارد سعيد بشأن السرديات، أو المرويات الكبرى: ((إن الأمم، كما اقترح أحد النقاد، هي ذاتها سرديات، ومرويات)) (سعيد، ٢٠٠٤: ٥٨) و(هاو، ٢٠١٠، ينظر: ٢٧١).

[٦٩] الاغتراب بالمعنى الفلسفي: عدم التوافق بين الماهية والوجود.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

الحقيقة المستخلصة من دراسة المنتج الفلسفي اللساني الأنثروبولوجي الغربي، المساوق لنشأة البروتسانتية هي إن منظوماته الفكرية تلغي أي اغتراب لموضوعة تحولات الإنسان، وحتى تأليه الإنسان عن الثقافة الغربية، وعن خلاصتها الأخيرة؛ (الأمريكية)، وتعتقد أن ثمة نوعاً من التصالح، بل التماسك المعرفي بين المسيحية المستحدثة، ووقوع الإنسان والطبيعة في قبضة الصيرورة، فالمنهج الفلسفي اللساني البروتستانتي بوصفه مُنتَجاً إنسانيًّا متخماً بالبعد الأنثروبولوجي، أسقط إيمان المسيحية الكاثوليكية عن منصة التعالي على التاريخ، وجعلها–وهي المهيَّأة أصلاً لقبول (الثقافة الكمونية الحلولية)– ديناً ديالكتيكيًّا طبيعيًّا (ماديًّا) جدًّا، إلى أقصى حدود المادية، وقابلاً لدمج الإيمان الروحي بالداروينية الاجتماعية، لينمحي ذلك الإيمان؛ (الروحي) مع الزمن، كما هو جارٍ فعلاً، ومن ثَّمَّ يتحقق الوصول –بجدل التاريخ، وبالتطور المتسارع للهندسة الوراثية– لصناعة (مرحلة ما بعد الإنسان) التي هي المنتج المحسوس الحتمي القادم –من الناحية الفرضية–للانتخاب الصناعي. وهو ما يفضي إلى تذويب الحد الفارق بين الثابت الإيماني والمتحرك الإلحادي في الثقافات البشرية، بل يصل الأمر إلى تذويب الفارق بين الخالق والمخلوق، فالربُّ هو التاريخ على وفق الرؤية الهيغلية، والنتيجة التابعة هيَ السعي النيتشوي المحموم نحو عالم طبيعي خالص، مكتظ بالآلهة المتعددة المستغنية بذاتها عن المدد الإلهي، المندمجة بالعالم الطبيعي الفيزيائي، بدون لحظة افتراق واحدة، شأنها شأن الآلهة الوهمية الإغريقية والرومانية الغابرة، لكنها آلهة معاصرة. فكأن الإله الخالق المدبر –إن بقي منه شيء في بنيات الثقافة الغربية– قد أخذ استراحة سرمدية مفتوحة. وجميع السرديات الأسطورية السينمائية الهوليودية التي حُللت في هذه الدراسة تدين بانبثاقها نصوصاً؛ لسانيةً، وسيميائية لـ(الداروينية الاجتماعية)، بوصفها البنية الذهنية المنتجة لها، في عالم خالٍ من وشائج الارتباط بالقوة المطلقة المفارقة؛ (الإله القدير الخالق)، الذي يمدُّ الكون –حسب منظومات الأديان السماوية–بأسباب الحياة، فجميع عوامل بقاء الأشياء في الطبيعة على قيد التحقق حالَّةٌ –من منظور اجتماعي دراويني–في كياناتها المادية، فكأن العالم –في حالِ كونه نصًّا بنيويًّا مغلقاً–نصٌّ سيميائيٌّ بالغ العظمة، نسجه مؤلف عظيم، لكنه اختفى من الوجود، وهي الحالة التي يطلق عليها بالمنظور البنيوي الخالص (موت المؤلف).

يضع الزحفُ المتواصلُ للبروتستانتية الحلولية المادية المعتقداتِ السماويةَ؛ المسيحيةَ؛ الكاثوليكية، والأرثوذوكسية، والإسلامية؛ الشيعية، والسنية، بل حتى المعتقدات المصنفة بأنها غير سماوية كالكونفوشيوسية في مواجهة خطر ماحق، من عيار ثقيل لم تعهد مثله البشرية. لكن الجماعات البشرية الممثلة لهذه المعتقدات تتفرق، بل تتمزق على أساس المصالح السياسية، والاقتصادية، ويسهم الاختلاف الثقافي والعقائدي في إدامة ذلك. ويتطلب بقاء هذه الثقافات التقليدية على قيد الاستمرار الفعلي قبولاً متبادلاً، وتحالفاً علميًّا، واقتصاديًّا، وتعاوناً عسكريًّا، يضمن لهذه الجماعات البشرية كافة القدرة على مواجهة الهجمة البروتستانتية الاجتماعية الدراوينية على الجنس البشري. بيد أن الأمر لا يبدو كذلك من الناحية الواقعية، فالزمن الراهن زمن أمريكي بروتستانتي بامتياز. وثمة أعداد هائلة من أفراد الحضارات المتراجعة الذين ليس لهم علاقة بالمقاومة الثقافية للزحف البروتستانتي على العالم، ما يعني أن الحضارات المتراجعة ستكون في مواجهة حتمية مع نزوع متسارع لأتباعها نحو الرؤية البروتستانتية الدراوينية الاجتماعية، لأن ارتباط المرحلة الحالية للوجود البشري على ظهر الكوكب بالفلسفة الوجودية –منذ بدء انتهاء عصر الإيديولوجيات الكبرى، وتآكلها المتسارع المقترن بسقوط الاتحاد السوفييتي، وانهيار الأنظمة الشيوعية– يدفع بجعل أتباع الثقافات غير البروتستانتية ميّالين نحو إشباع الحاجات الحسية الفردية، وهو ما تقدمه الحضارة الأمريكية بطريقة فذة للغاية، باثّةً فكرة (وجودية) فحواها تقديس الحياة الخاصة، واحترام المتع الشخصية، وتعظيم مبدأ (الإنسان الفرد) القادر على أن يدير شؤونه الدينية والدنيوية بنفسه، من دون الاهتمام بتوصيات الله تعالى، وسائر الأنبياء، والرسل، ومن دون الاستعانة بمدد من أية قوة روحانية مفارقة، أو سلطة يسارية (اشتراكية) طاغية، تضمن له العمل، والطعام، والعلاج، مقابل سلبه الحرية الشخصية. وصارت رؤية الإنسان لنفسه–من منظور وجودي– هي الأساس الصحيح للعيش في هذا العالم، فالإنسان الفرد هو (المشرِّع)، و(المشرّع له) في آن واحد. وهذا هو المضمر الثقافي لعشق كثير من سكان الكوكب لشخصيات السرديات الأسطورية الهوليودية الخارقة، المستغنية بقوتها عن أي مدد من خارج هذا العالم.

صارت الهجمة البروتستانتية الشرسة –بالنتيجة– تحضّراً مرغوباً، ومطلوباً، ومرحباً به، وعصرنةً ينبغي اللحاق بركبها، أو أمراً واقعاً يستدعي التعايش والتفاهم، وليس انقلاباً ثقافيًّا خطيراً، ينذر بخطر شديد قادم، لذا راحت جهات ثقافية، ومراكز دينية، ومؤسسات روحية كبرى تجهد نفسها بالبحث عن مسوغات تأويلية (هرمنيوطيقية) في نصوصِها المقدسة، تسعفها في تدجين القبول بالواقع البروتستانتي الجديد، بوصف ذلك (القبول) الوسيلة الأثيرة التصالحية، البديلة عن خوض صراعات محكومة بإخفاق مؤكد –كما تظن ذلك– مع حضارةٍ

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

أمريكيةٍ متغلبةٍ، ساعيةٍ لفرض الحلولية البروتستانتية على الثقافات البشرية كافة. وفي هذا الطوفان الثقافي الأسطوري للبروتستانتية الحلولية التي تدهم أبواب العالم، على مدار الساعات والأيام، تنسى، أو تتناسى الكائنات البشرية الضعيفة المستسلمة لـ(العَصْرَنة البروتستانتية) ألّا مكانَ لها في عالَمٍ نيتشويٍّ قادم، كما تصور ذلك السينما الهوليودية، ولا حظَّ لها في ميادين الصراع، بالفوز بجائزة البقاء والاستمرار والخلود، فـ((على كل وجود متناهٍ أن يتلاشى، حتى يفسح مكاناً لأشكال جديدة أكثر اتصافاً بالكمال)) (كاسيرر، 3371975:)[٧٠] . وفي هذا النصّ الجدلي (الديالكتيكي) نجد مرجعية فلسفية هيغلية للتطور الأمريكي، الشاعر دوماً بالتفوق، والتغلب على العالم، على وفق مبدأ (وحدة الوجود المادية).

إن الحضارة الغربية في حالة صيرورة دائمة، لا تتوقف إلّا عند حدود ما تقدِّمُه الطبيعة، ما يجعلها في حركة دائبة، وتطور متواصل. ويبدأ هذا التطور –كما ظهر من الدراسة– بالحلقة الأولى التي هي الفلسفة اللسانية الأنثروبولوجية، ثم تأتي الحلقة الثانية التي هي الهندسة الوراثية، والذكاء الصناعي، ثم تأتي الحلقة الثالثة التي هي نبوغ قادة سياسيين ينفذون المخطط الفلسفي الأنثروبولوجي؛ (الحلقة الأولى)، بقوة العلوم الطبيعية والتكنلوجيا؛ (الحلقة الثانية)، فيتغير شكل العالم. ويعني هذا الاستنتاج أن القادة الغربيين الحاليين سيكونون في ذمّة التاريخ، ليحلَّ محلَّهم قادة سياسيون من طراز آخر، يتواءم والحقبةَ الدراوينية الاجتماعية الجديدة المفترض حدوثها في العالم.

بالبناء على كل هذا يتطلب الفرضُ المنطقيُّ الذي ينبغي على قادة الشعوب الواقعة خلف أسوار (الجنة الأطلسية) التحلي به، إسقاطَ ثقتِهم السياسية والفكرية بسلوك القادة الغربيين المعاصرين الحداثيين الديكارتيين؛ الصادقين والكاذبين على حد سواء، فما هم– ببداهة التفكير– إلا وسيلة الأمر الواقع المتوارثة لدفع عجلة الحياة الغربية، التي يرتبط انتهاء مدة صلاحيتها الاستعمالية، وانقراضها، بإنجاز قفزة حقيقية كبرى في الحلقة الثانية: (الهندسة الوراثية، والذكاء الصناعي).

ولكن– وبعد محاولة الدراسة الحثيثة في بيان الخطر القادم– هل هذه هي النهاية التي يسير نحوها المستقبل البشري؟ يمكننا القول –من منظور بنيوي ثقافي أنثروبولوجي– إن عامل انهيار الحضارة الغربية موجود في بنيتها الثقافية، فهي قائمة –في صميمها–على خليط لافت من (الوضعية المنطقية)، و(الذرائعية الوجودية)، ولو تمكنت من فرض نموذجها على سكان الكوكب، فإنها لا تلبث طويلاً حتى تدخل –من منظور جدلي ديالكتيكي– في

[٧٠] وكاسيرر هنا يشرح فلسفة هيغل.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

صراع (داخلي)، يفضي بها إلى تجزئة وحدتها المتماسكة، ومحاربة نفسها بنفسها، ما يعني أنها تقوم بعلمية الإفناء الذاتي لوجودها الثقافي في أقل تقدير، لأن السَّكينة الجدلية (الديالكتيكية) لا يمكن أن تتحقق لها، أو هي غير متاحة لها، بحكم إيمانها، بل إنشائها على موضوعة الصراع الدائم، ولعل الحرب العالمية الثانية، التي هي حرب أهلية غربية بالدرجة الأساس، دليل على ذلك، فقد كانت بشكل من الأشكال حرب شعوب العقلانية الديكارتية فيما بينها.

جاء في القرآن الكريم: ((ولأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآمُرَنَّهُمْ فلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنعامِ ولآمُرَنَّهُمْ فلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ومَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وليًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرانًا مُّبينًا)) النساء/١١٩، ما يعني أن (خلق الله قابل للتغيير)، فقد سمح الله تعالى بذلك، من باب الاختبار الدنيوي للإنسان، فليس من المستبعد–في زمن أمريكي تتطور فيه الهندسة الوراثية، وتتسارع فيه قدرات الذكاء الصناعي–حدوث نجاح حيوي (بيولوجي) من عيار بنيوي ثقيل، بمعنى إمكان تغيير البنية الوراثية (الجينية) للبشرية بوصفها أفراداً، أو على مستوى أعداد –ربما– كبيرة منها، ولكن ليس على المستوى الكلي للجنس البشري. ولعل إرهاصات ذلك (النجاح) متحققة في القدر المكشوف من تجارب التلاعب الجيني، في وسائل الإعلام المختلفة، وليس بمستبعد أنَّ عالَماً خطيراً جدًّا قادماً تنتظره البشرية، تملؤه كوارث التحوّلات الكبرى، بمعطياتها الإلحادية الحلولية. لكننا –على كل حال–لا نرى أن مسعى (الداروينية الاجتماعية) سيصل إلى تحقيق الهدف الأخير، فهذا البناء الكوني العظيم مرتبط –من منظور إيماني إسلامي، ومسيحي كاثوليكي، وأرثودوكسي– بمُوجِدٍ، خالقٍ، مدبرٍ لا يتخلى عنه، جعل من ختام ذلك الفعل البشري؛ أي (تغيير خلق الله)، ذلك التغيير الساعي إلى مسخ الجنس البشري هو (الخسران المبين)، فثمة (عامل مجهول) يتدخل دائماً في تغيير مسارات التاريخ، وإيقاف عجلة الخراب، والتخريب؛ قال تعالى: ((ويَمْكُرونَ ويَمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)) الأنفال/٣٠.

–انتهى–

المصادر :

القرآن الكريم

١. إبراهيم، د. زكريا(د.ت)، مشكلة الفلسفة، الناشر: مكتبة مصر، شارع كامل صدقي–الفجالة.
٢. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرّم(د.ت)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة–مصر.
٣. إدجار و جويك، أندرو و بيتر سيد(٢٠١٤)، موسوعة النظرية الثقافية، المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة: هناء الجوهري، مراجعة: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة–مصر، ط٢.
٤. أرمسترونغ، كارين(٢٠٠٨)، تاريخ الأسطورة، ترجمة: د. وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم– ناشرون، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، بيروت–لبنان، ط١.
٥. الإسكندري، القديس أثناسيوس(١٩٩٨)، في تجسد الكلمة وظهوره بالجسد من أجلنا، منشورات المكتبة البولسية، بيروت–لبنان، ط١.
٦. إلياد، مرسيا(١٩٩١)، مظاهر الأسطورة، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق–سورية، ط١.
٧. إلياد، ميريسيا(١٩٩٥)، ملامح من الأسطورة، ترجمة حسيب كاسوحة، وزارة الثقافة، دمشق–سورية.
٨. بارت، رولان(١٩٨٧)، مبادئ في علم الدلالة، ترجمة: محمد البكري، سورية – اللاذقية، ط٢.
٩. باومان، زيغمونت (٢٠١٦)، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة سعيد البازعي، وبثينة الإبراهيم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ط١، أبو ظبي.
١٠. باومان و بوردوني، زيجمونت ، كارلو(٢٠١٨)، حالة الأزمة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت–لبنان، ط ١.
١١. باومان، زيجمونت(٢٠١٤)، الحداثة والهولوكوست، ترجمة: حجاج أبو جبر، ودينا رمضان، القاهرة–مصر، ط١.
١٢. باي، ماريو (١٩٩٨) أسس علم اللغة، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتاب، القاهرة، ط ٨.
١٣. برهييه، إميل(١٩٨٧)، تاريخ الفلسفة، الفلسفة الحديثة (١٨٥٠– ١٩٥٤)، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، ط ١.
١٤. بريدوتي، روزي(٢٠٢١)، مابعد الإنسان، ترجمة: حنان عبد المحسن مظفر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب–الكويت.
١٥. بغوره، د.الزواوي(٢٠٠٥)، الفلسفة واللغة، نقد (المنعطف اللغوي) في الفلسفة المعاصرة، الطليعة–بيروت، ط١.
١٦. بنكراد، سعيد(د.ت)، سميائيات الصورة الإشهارية، الإشهار والتمثلات الثقافية، نشر أفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
١٧. ر. بودون، و ف. بوريكو(١٩٨٦)، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط١.
١٨. بودين، مارجريت إيه(٢٠٢٢)، الذكاء الاصطناعي، مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة: إبراهيم سند أحمد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة–مصر.

١٩. تشاندلر، دانيال (٢٠٠٨)، أسس السيميائية، ترجمة: د. طلال وهبه، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١
٢٠. جوناثان ري، وج .أو. أرمسون(٢٠١٣)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبد الرشيد الصادق محمودي، وإشراف: زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، القاهرة–مصر، ط ١.
٢١. جيلسبي، مايكل ألين(٢٠١٩)، الجذور اللاهوتية للحداثة، ترجمة: فيصل بن أحمد الفرهود، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت–لبنان، ط١.
٢٢. الحسن، د. يوسف(٢٠٠٠)، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي–الصهيوني (دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت–لبنان، ط ٣.
٢٣. حسيبة، د. مصطفى(٢٠٠٩)، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن–عمان، ط١.
٢٤. حمد، د. حسين علي(١٩٩٨)، قاموس المذاهب والأديان، دار الجيل، بيروت–لبنان، ط١.
٢٥. داروين، تشارلز(٢٠١٨)، أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، مصر.
٢٦. راضي، د. وسام فاضل(٢٠١١)، السينما الأمريكية والهيمنة السياسية والإعلامية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة–مصر، ط١.
٢٧. ريكور، بول(٢٠٠٦أ)، الزمان والسرد، التصوير في السرد القصصي، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١،.
٢٨. ريكور، بول(٢٠٠٦ب)، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٢.
٢٩. سبنسر، هربرت(د.ت) التربية، ترجمة: محمد السباعي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة–مصر.
٣٠. سعيد، د.إدوارد(٢٠٠٤)، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط٣.
٣١. سلامة، أمين(١٩٨٨)، معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، مؤسسة العروبة للطباعة والنشر والإعلان، مصر، ط ٢.
٣٢. السّواح، فراس. (٢٠٠١)، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا، والديانات المشرقية، دار علاء الدين، دمشق–سورية، ط ٢.
٣٣. السواح، فراس(٢٠٠٢)، لغز عشتار ، دار علاء الدين، سورية، دمشق، ط ٨.
٣٤. السّواح، فراس(١٩٩٦)، مغامرة العقل الأولى (دراسة في الأسطورة: سورية، وأرض الرافدين)، دار علاء الدين، دمشق–سورية، ط١١.
٣٥. سِيد، ديفيد(٢٠١٦)، الخيال العلمي، مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة: نيفين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة–مصر، ط١.
٣٦. شايغان، داريوش(٢٠٠٤)، ماالثورة الدينية، الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، ترجمة: د. محمد الرحموني، دار الساقي، بيروت، ط١.
٣٧. شعراوي، د. عبد المعطي(١٩٨٢)، أساطير إغريقية، (الجزء الأول؛ أساطير البشر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٣٨. صليبا، د.جميل(١٩٨٢)، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت.

٣٩. طرابيشي، جورج(٢٠٠٦)، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت، ط٣.
٤٠. عثمان، د. صلاح محمود(٢٠٠١)، الداروينية والإنسان، نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف بالإسكندرية–مصر.
٤١. الغذامي، عبد الله(٢٠٠٥)، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٣.
٤٢. فوكوياما، فرانسيس(٢٠٠٦)، مستقبلنا ما بعد البشري عواقب الثورة التقنية الحيوية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، دولة الإمارات العربية المتَّحدة، أبو ظبي، ط١.
٤٣. فوكوياما، فرنسيس(٢٠٠٢)، نهاية الإنسان، عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ترجمة: د. أحمد مستجير، دار سطور، القاهرة–مصر، ط١.
٤٤. فيري، لوك(٢٠٠٢)، الإنسان المؤله أو معنى الحياة، ترجمة: محمد هشام، بيروت– لبنان، والدار البيضاء– المغرب.
٤٥. الفيصل، د. عبد الحسين(١٩٩٩)، الهندسة الوراثية، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله–فلسطين، ط١.
٤٦. كاسيرر، أرنست(١٩٧٥)، الدولة والأسطورة ، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، مراجعة: أحمد خاكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٤٧. كاسيرر، أرنست(٢٠٠٩)، اللغة والأسطورة، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١.
٤٨. الكتاب المقدس، ترجمةُ العالَم الجديد، مترجم عن الطبعة الإنكليزية المنقحة الصادرة سنة ١٩٨٤ للكتب المقدس–ترجمة العالم الجديد. الناشرون: (WATCHTOWER BIBLE AND TRACT SOCIETY OF NEW YORK, INC. Brooklyn, New York, U.S.A). تُرجم إلى العربية في اليابان.
٤٩. لوريداس، بانوس(٢٠٢٢)، الخوارزميات، ترجمة: إبراهيم سند أحمد، مؤسسة هنداوي، القاهرة–مصر.
٥٠. د.مراد وهبة(٢٠٠٧)، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، مدينة نصر– القاهرة.
٥١. المسيري، د. عبد الوهاب(٢٠٠٢)، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، ط١.
٥٢. المسيري، د. عبد الوهاب(٢٠٠٧)، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق–سورية، ط ٢.
٥٣. المسيري، د. عبد الوهاب(١٩٧٥)، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، وسوسن حسين، مركز الدراسات السياسية بالأهرام، القاهرة–مصر.
٥٤. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع(١٩٩٩)، الموسوعة العربية العالمية، الرياض–السعودية، ط٢.
٥٥. نيتشه، فريدريش(٢٠٠٣)، ماوراء الخير والشر تباشير فلسفة للمستقبل، ترجمة: جيزيلا فالور حجّار، دار الفارابي، بيروت–لبنان، ط١.
٥٦. نيتشه، فريدريش(٢٠٠٧)، هكذا تكلم زرادشت، كتاب للجميع ولغير أحد، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، كولونيا–ألمانيا، بغداد–العراق، ط١.

٥٧. هاو، آلن(٢٠١٠)، النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)، ترجمة: ثائر ديب، دار العين للنشر والمركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١.

٥٨. هَراري، يوفال نوح(٢٠١٨)، العاقل تاريخٌ مختصر للجنس البشري، ترجمة: حسين العبري، وصالح بن علي الفلاحي، أبو ظبي–الأمارات العربية المتحدة، ط١.

٥٩. الهنداوي،الحموري، المعايطة(٢٠١٧) د.أحمد ذوقان ود.صالح سليم، أ.رولا نايف. استشراف المستقبل وصناعته، ما قبل التخطيط الاستراتيجي، استعداد ذكي، دار قنديل، دبي، ط١.

٦٠. هندريكس، سكوت إتش(٢٠١٤)، مارتن لوثر، مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة: كوثر محمود أحمد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة–مصر، ط١.

٦١. هوبز، توماس(٢٠١١)، اللفياثان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة: ديانا حرب، وبشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ودار الفارابي، ط١.

٦٢. وورد، ديفيد(١٩٩٩)، الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط١.

References

1. Blachere, Dr. Regis, translated by Dr. Ibrahim Kilani, 1956, History of Arabic Literature in the Pre-Islamic Era, Dar Al-Fikr, Damascus, (n.d.).
2. Al-Bayati, Adel Jassim, 1972, Poetry of Qais bin Zuhair, Al-Adab Press, Najaf Al-Ashraf.
3. Jad Al-Mawla Bek, Muhammad Ahmad, Ali Muhammad Al-Bajawi, Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, 2011, Days of the Arabs in the Pre-Islamic Era, Al-Asriya Library, Sidon-Beirut, (n.d.).
4. Harb, explanation and introduction by Talal, 2009, Diwan of Muhalhil bin Rabi'a, Al-Dar Al-Alamiyah, (n.d.).
5. Al-Rajhi, study and investigation by Nafi' Manjal Shahin, 1986, Muhalhil bin Rabi'a Al-Taghlabi, his life and poetry, Master's thesis, Faculty of Arts, Al-Mustansiriya University.
6. Shalabi, Dr. Saad Ismail, 1982, Artistic Origins of Pre-Islamic Poetry, Gharib Library, Cairo, 2nd ed.
7. Tammas, edited and explained by Hamdou, 2004, Diwan Al-Khansa, Dar Al-Ma'rifa, Beirut, 2nd ed.
8. Al-Marzubani, Abu Abdullah Muhammad bin Imran (d. 384 AH), 1995, edited by: Dr. Sami Makki Al-Ani, Hilal Naji, Women's Poetry, Alam Al-Kutub, Beirut-Lebanon, 1st ed.
9. Abdul Rasool, edited by: Dr. Omar, 2009, Diwan Duraid bin Al-Samma, Dar Al-Ma'arif, Cairo, (n.d. - n.d.).
10. Gharid, commented on and wrote its marginal notes by Gharid, its general indexes were prepared by Ibrahim Shams Al-Din, 2003, Explanation of Diwan Al-Hamasa by Abu Tammam, Abu Ali Ahmad bin Muhammad bin Al-Hasan Al-Marzouqi (d. 421 AH), Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 1st ed.
11. Fawwal, Aziza, 1988, Dictionary of Pre-Islamic Poets, Dar Sadir, Beirut, 1st ed.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

12. Al-Kubaisi, Tarrad, 1983, War Poetry among the Arabs before Islam, Encyclopedia No. (135) A Methodological and Ethical Perspective, Publications of the Department of Cultural Affairs and Publishing, Baghdad, (n.d. - n.d.).
13. Kamal, Dr. Ali, 1983, The Soul, Its Emotions, Diseases and Treatment, Wasit Printing and Publishing House, New and Expanded, 2nd ed.
14. Mardini, Raghdaa, 2002, Pre-Islamic Poets: A Critical Study, Dar Al-Fikr, Damascus, (n.d. - n.d.).
15. Muhi, translated by Dr. Ibrahim Abdullah, 1967, Psychology in Practical Life, Dr. Bernhat, Al-Ani Press, (n.d. - n.d.), Baghdad.
16. Al-Masloot, Abdul Hamid Mahmoud, 1963, Lectures in the History of Arabic Literature, the Pre-Islamic Era, Al-Azhar Al-Muhammadiyah Printing House, Cairo, 1st ed.
17. Yamut, Bashir, 1934, Arab Poets in the Pre-Islamic and Islamic Eras, National Press, Beirut, 1st ed.
18. Al-Ruqi, Bajad bin Ziyad bin Mu'add, 1994, Supervised by Professor Dr. Mahmoud Hassan Zini, Poetry of the Banu Kalb Tribe (From the Pre-Islamic Era to the End of the Umayyad Era) An Objective and Artistic Study, PhD Thesis, Umm Al-Qura University, College of Arabic Language, Graduate Studies, Department of Literature and Criticism, Kingdom of Saudi Arabia.